

اتحاد الأدباء الكرد
المركز العام 20

مكتبة ماجد الحيدر

<https://www.facebook.com/pages/مكتبة-ماجد-الحيدر>

الرحيل الدامي

رواية قصيرة

حمه كويم عارف

ترجمة جلال زنكبادي



اتحاد الادباء الكرد المركز العام ٢٠

عنوان الكتاب: الرحيل الدامي (رواية قصيرة)

تأليف: حمه كريم عارف

ترجمة: جلال زنگابادي

الطبعة الاولى - ٢٠١٢

تصميم الغلاف: ستار قرداخي

مطبعة: روثمه لات - اربيل

رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات العامة (٥٨٨) سنة ٢٠١٢

* حقوق الطبع محفوظة لاتحاد الادباء الكرد

حمه كريم عارف

الرحيل الدامي

(رواية قصيرة)

ترجمة ودراسة:

جلال زنگابادي

الإهداء

مهداة إلى الروح الطاهرة للفنان المأسوف على شبابه كامران صديق

حمه كريم عارف

(الرحيل الدامي) رواية كردية رائدة

جلال زنكبادي

لهذه الرواية بنية فنية محبوكة رشيقة ومتماسكة تستند بالأخص إلى تقنية البوليفونية (تعددية الأصوات الساردة) تكريساً لطرح تعددية وجهات النظر، ولذا فهي تنسم بدنيامية عالية تفنن إلبها الحكمة التقليدية، التي يحتكر فيها (الراوي العليم) عموماً مهمة السرد؛ ففي البوليفونية ينحسر السرد الأحادي، لتحل محله السرد المتعددة، التي تتيح حرية تصوير المشاهد والمواقف من منظور تعددي إضافة إلى استبطان دواخل الشخصيات لتعتبر بحرية عن خصوصياتها، في حين يخفت صوت (الراوي العليم) وتلاشى هيمنته البطيريركية الفارضة لأحادية المنظور على فضاء الرواية قسراً؛ فهنا تسود النغمة الإحتمالية والشكوكية المجسدة لإشكاليات طبائع الشخصيات، حيث يدخل القاريء " في مآهات المعضلات الإنسانية التي تعاني منها الشخصيات؛ لا بغية التوحد معها من منطلق التفوق أو حتى التعاطف، كما كان الحال في الرواية التقليدية، وإنما من منطلق الإكتشاف الذي يتطلب درجة واضحة من درجات الانفصال عن الموقف الروائي" (١)

من الجلي أن الكاتب القدير حمه كريم عارف قد أفلح في الهيمنة على إدارة حبكة الرواية بالتحكم بتقنية البوليفونية، التي كسرت رتابة السرد؛ حيث لايطغى على (الرحيل الدامي) راو عليم كلي المعرفة، وإنما ثمة ثلاثة مستويات أو ثلاث طرق سردية للسرد تتيح القفز والنفقات بين الأمكنة والأزمنة المختلفة ومستوى الواقع في السرد؛ لتقديم مجمل الرواية بما فيها من شخصيات وأحداث وأفكار...ويمكننا تصنيف روايتها، وهم يتموضعون في (مستوى الواقع) وهو مستوى عالم واقعي، وليس فنتازياً، كما يلي:

١- مستو: وهو راوي - شخصية رئيسة يروي بلسان الشخص الأول المتكلم (أنا) ويختلط في منظوره مكان الراوي مع المكان المروي ، ويطغي المونولوج على سرده، وبطريقة (الإلتفات) أحيانا قليلة.

٢- صادق: مثله راوي - شخصية رئيسة ، ولكن بطريقة (الإلتفات) عموماً. و(الإلتفات) هو التحدث إلى النفس باتخاذ ضمير المخاطب (أنت) ذريعة لذلك.

٣- (الراوي الملتبس) والذي لايعرف عنه إذا ما كان يروي من داخل العالم المروي ، أم من خارجه، وهو حديث العهد، انه نتاج الرواية الحديثة حسب توصيف ماريو بارغاس يوسا(٢) وهو في (الرحيل الدامي) أكثر شبهاً بالراوي العليم ، حيث يظهر ويتدخل بلسان الشخص الثالث (الغائب) بين حين وآخر؛ لإعادة وتسيير عملية السرد، بدون المشاركة في الأحداث، بلا غطرسة ولا إقحام لأرائه ومواقفه وأحكامه. وثمة أيضاً رواة آخرون ثانويون تتشعب سرودهم (بطريقة إسنادية) من سرود الرواة الثلاثة الأساسيين ؛ ولذا يحدث تداخل وتقاطع وتشابك سردي . ومن الملحوظ أن (الفلاش باك) يهيمن عموماً على تأثيث (الرحيل الدامي) و هو يعول بطبيعته على الذاكرة والمخيال.

معلوم أن الحكمة في الأجناس السردية هي " سياق الأحداث والأعمال وترابطها ؛ لتؤدي إلى خاتمة" (٣) والترابط عموماً سببي يتأسس على العلاقة الجدلية بين السبب والنتيجة. والسرد ينتظم في الحكمة الضابطة لجريانه، وفي (الرحيل الدامي) تتجلى العلاقة الجدلية لأنماط الزمن بتعددية السرد وتنوعه ، وهو سرد يتشعب إلى: السرد الاعتيادي و السرد الإسترجاعي التذكري الذي يستعيد ويستحضر أحداث الماضي ، و هو المهيمن على الرواية ، ويليه السرد الإستباقي وهو بطبيعته تخيلي ، ولئن كمنت طاقة الحرية في التخيل ؛ فهو يستشرف المستقبل ويتنبأ بأحداثه بطريقة اعتيادية مثلما الحال في توقع مستو لمقتله عبر سرده لواقعة مقتل سيابند، أو بطريقة رمزية مثلما الحال في أحلام أم مستو التي إستبقت حادثة إعتقال زوجها صادق في أحد أحلامها وما أصاب مستو (لاحقاً) في حلم آخر. ومن ثم تتضافر هذه الأنماط السردية في التشكيل السرد للرواية، و نلتمس مهارة الكاتب وبراعته في توظيف عناصر البناء

السردى و وسائله المتشابهة ، التي لا يمكن فصلها عن بعضها البعض إلا مجازاً و بعسر ؛ من أجل دراستها، فثمة الشخصية (بتكوينها الفيزيقي والنفسي والفكري) باعتبارها من أهم عناصر الرواية ؛ لإرتباطها بالأحداث ومجمل الصراعات (الذاتية والموضوعية) و شخصيات (الرحيل الدامي) مرسومة بدقة مشهودة ؛ بحيث نتحسس وجودها ككائنات حية ذات ملامح خاصة : فيزيقية و سايكولوجية وفكرية، وهي تختلف فيما بينها بأفكارها وأقوالها وأفعالها، وهنا نشير إلى الحضور الساطع لسيابند ، رغم غيابه، وذلك عبر أمه وصادق ومستو وأعدائه، على سبيل المثال.

و من الملحوظ أن المونولوج يطغى لدى الشخصية المأزومة (مثل مستو و خليفه خدر) حيث يكشف عن صراعاتها الباطنية وخباياها النفسية والفكرية، في حين يكشف الديالوغ عموماً عن الصراعات بين الشخصيات كما الحال بين (محمود) و(سيابند)

فضلاً عن المضمون المهم لـ (الرحيل الدامي) يستلقت شكلها الفني النظر بعنصريه: (الأسلوب) و(النسق) الذي يتحقق في الترتيب السردى الفني للمضمون ، وهو يشمل الراوي و المكان والزمان.

ولأننا تناولنا سالفاً رواة الرواية و شخصياتها؛ فقد وجبت الإشارة (الخاطفة و لو) إلى عناصر: المكان والزمان والحدث.

المكان في هذه الرواية (الواقعي ، أو المتخيل ، أو المركب من كليهما) يُبنى بالوصف ، وهو وصف ذو وشائج بالوصافين أنفسهم، وليس بوصف جامد ، أي أن الأمكنة (الرئيسة والثانوية) الوارد ذكرها في الرواية ليست معزولة ، وإنما تقتزن بشخصيات وأحداث كما الحال في وصف القرية ، وغرفة القيادي الحزبي محمود، من منظور مستو.

أمّا الزمان فليس في (الرحيل الدامي) زمن موضوعي كرونولوجي (تسلسلي) وإنما يطغى عليها الزمن الذاتي السايكولوجي (النفسي) والذي طالما يركز على التذكر و التخيل .

وأما الحدث (سواء أكان حقيقياً أو متخيلاً) فلكونه أصلاً فعلاً ؛ فهو يقتزن بزمان محدّد و يستند إلى حبكة، و ينفرز منه التوتر الدرامي ، ومن الأمثلة عليه: واقعة عرس صادق ، وواقعة ضياع القافلة وواقعة إستشهاد مستور.

وتعود أهمية الأسلوب ، و هو جوهر يتركز على اللغة التي تُروى بها القصة ، تعود حسب تشخيص (يوسا) إلى كون : " الروايات مؤلفة من كلمات ، وهذا يعني أن طريقة الروائي في اختيار مفردات اللغة وصياغتها وترتيبها ، هي عامل حاسم في جعل قصصه تمتلك قوة الإقناع أو تفتقر إليها، ولكن لا يمكن للغة الروائية أن تكون مفصولة عما تقصه الرواية، أي عن الموضوع الذي يتجسد في كلمات" (٤) ففي (الرحيل الدامي) تتبيّن أصالة أسلوب كاتبها المنفتح على توابل الأمثال والأقوال الشعبية الشائعة، والملاذعة خاصّة، بما تنطوي عليها من كنايات كردية وغير كردية ، ومنها(٥):

" يا من تجبن أمام الحمار وتمتأسد على البردعة!" / " أليس الكبير يسكب الماء؛ ثم يتزحلق الصغير...؟!"/ " فلا بد أن ينجلي الليل مهما طال"/ " الخروف الذكر للذبح"/ " إذا غاب العقل ؛ تشقى الروح " أي " الذي لايعرف تدابيره؛ حنطته تأكل شعيره" حسب القول الشعبي العراقي المأثور/ " إخش الماء الراكد"/ " ترعى مع الخرفان وتأكل مع الذئاب !"/ " فالموت موت ؛ فلماذا اللبث والرفس؟!"/ " المطحنة في خيال ، والطحان في خيال آخر" ويعادله في القولكلور العراقي: " عرب وين و طنبوره وين ؟!/ " إنها نارنا الملتهبة لن نعطيها للبنيت الغربية"/ " النار فاكهة الشتاء والبرغل علف الرجال!"/ " هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه....."/ " اللقلق مسكين ، لكنه يأكل الحبة!"/ "...فهو أثافي سبعة قدور!"/ و" في كل شعرة من لحيته ألف حيلة!"

ويتميز أسلوب الكاتب بتكرار بضع (لازمات) تنشط السرد وتقوّي تماسك شكل الرواية، وتشحن إيقاعها بالدينامية ، ومنها:

"هاهنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسية لمعرفة الوقت صباحاً ، ظهراً و مساءً..."/ " ها...إنه رجلك المصطفى ! قسماً

بأنه يا خليفه تأكد بأن قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا في هوة ، بل في مائة هاربة حتى لو إنسبغت الأرض أمامها!"/ " إن البيشمرکه هو من أشعل الثورة العارمة في ذاته أولاً. إن البيشمرگایتي ، باختصار ، هي جوهر الثورة ولبها؛ فالثورة تغيير... تغيير في ميادين الحياة كلها..."/ " البيشمرگایتي محبة خالصة بلا رياء"/ " إن مصلحة الحزب فوق كل شيء. يجب على كل مخلص أن يذعن كلياً لقرارات الحزب. فنحن نقتل حتى أعضاءنا؛ في سبيل الحفاظ على وحدة صفوف الحزب . هذا ما يتطلبه التنظيم الحديدي. أجل ؛ نقله ، ثم نذرف عليه الدمع الهتون أمام أنظار الناس..."/ " هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه..."/ و " أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمرکه"

تتكوّن (الرحيل الدامي)- في ترجمتها العربية- من قرابة (١٥٢١٠ كلمات) أي انها نوفيلا(رواية قصيرة) لكننا نعلم جيداً أن الأهمية الأدبية لاتقاس بطول أية رواية أو قصصها؛ ف (المسخ) - أقصر روايات كافكا- ذات مكانة أهم من (القصر) التي هي أطول رواياته (٦) وحسب (الرحيل الدامي) إنها رواية كردية بلحمتها وسداتها؛ فثمة منات الألوف ، بل أكثر مثل شخصياتها بين ظهرانينا، وقد حدثت ومازالت تحدث الآلاف من أحداثها في كردستان، وهنا درة لأي النياس ؛ أمل أن توضح الجولة السريعة الآتية مجريات الرواية:

في الفصل {١}/(٢١٣ كلمة) يستعيد مستو عبر مونولوج ما جرى بينه وبين والده صادق ؛ إثر تصريحه بعزمه على الإلتحاق بالعمل الفدائي في جبال كردستان. ثم ينتقل السرد إلى (الراوي الملتبس) ليروي ما يدور بين والد مستو والدته...

في الفصل {٢}/(٢١٨١ كلمة) يواصل (الراوي الملتبس) سرد مايجري بين صادق والد مستو والدته، وكيف انتوى والده التبرأ من أبوته له ، ثم يتولى صادق بنفسه مهمة السرد ، مستذكراً عبر (فلاش باك) سنوات الماضي ؛ حيث يروي حلم زوجته (آه) ذا الدلالة ، حين كان مستو طفلاً صغيراً، وكيف تلتها واقعة إعتقال صادق وتعذيبه والتحقيق معه من قبل أزام الأمن العراقي ،

وصموده المشهود عبر الصمت رغم صنوف التعذيب النفسي والجسمي. والملحوظ في هذا الفصل هو أن صادق دوغري يسرد ماجرى له وخاصة في واقعة الإعتقال بمونولوج إسترجاعي وبطريقة (الإلتفات) أي مخاطبة الذات (الأنأ) بضمير (أنت) وهي الطريقة التي تلازمه عموماً طوال فصول الرواية. ويفلح الكاتب في تصوير أسر لمشهد حلم أنه (أم مستو) و مشاهد الإعتقال والتعذيب بما فيها من أساليب الترغيب والترهيب ، وكذلك مشهد حلمه بالمهر بعد التعذيب خلال الإعتقال.

كان لإسترجاع واقعة إعتقال صادق في مستقبل عمره التأثير النفسي والفكري الحاسم في موقفه المناويء للإلتحاق ابنه مستو بالعمل الفدائي: " لا ، لا ، لماذا أتيراً منه؟! " و " أترك تجهل كونه من أبناء شعب محكوم ؟! ثم أترك تجهل بأن أبناء الشعب المحكوم محكومون أن يصيروا ببشمر كه؟! ليت لساني يُبترَ قبل النطق بتلك العبارة..." وهكذا نراه يذعن لقرار ابنه مستو ، الذي لا يمكن تجاهل إصراره في التأثير على موقف والده.

في الفصل {٣}/(٢٣٠٥ كلمات) يروي مستو (بعد أن صار ببشمر كه) بطريقة الإلتفات كيف قصد ذات غسق إحدى القرى الكردية المحررة للإيواء ذات ليلة ، حيث يقدم لمشارفها ولها مشهداً بانورامياً ، تتخلله ندائاته النفسية والذهنية، وتنتطلع من خلاله على أهم المشاهد اليومية لأهالي القرية ، ألا وهو مشهد نبع الماء الذي تقصده النسوة والفتيات... وينقل مستو حواراً عاماً (جمله وعباراته منتقاة بذكاء) يدور بينهن ويكشف بصراحة جريئة عن بعض المسكوت عنه في تلك القرية بصفتها مجتمعاً كردياً مصغراً " وهناك تتصدع رأسك من ضجة الأطفال وثرثرة النساء وقرقة الصفائح والبراميل والشنائم وقهقهات الفتيات ومحادثات العوانس ، و مزحات وتلاسن النسوة، وأدعية ولعنات الزوجات الحانقات على أزواجهن..

- ليبتله الله بالعمى!

- شلّ لسانك

- بنت فاطمة المغناجة أراقت ماء وجهها!

- شيق فرجها خطف عقلها!
 - هنيئاً لك يا (ميناً) الحولة
 - يا (ملكيتي) تماديت في معاشرة (أحول)
 - عين الحسود تبلى بالعمى!
 - ليتك صرت زوجة أخي
 - بالله عليك إفسح لي المجال فأنا مستعجلة..
 - إنها محقة فثورها راجع !
 - ليتني كنت مثلها!
 - أعمالك الله ! لماذا غمرت يدك في مائي، ألا تعلمين بأني سأغتسل به من
 الجنايات؟!

- وأنا أعلل نفسي أن لي زوجاً، ليت الحمى الصفراء فتكت بجسمه!
 - وماذا بقي منك يا شمطاء؟!"

ثم يروي مستو كيفية حلوله ضيفاً طارئاً على بيت ميرزا إسماعيل، ومادار بينه وبين ميرزا من حديث يتعلق بالببشمركايتي ، من جهة ومادار من حديث بين خليفه خدر وميرزا عن (القافله) وينتهي الفصل بمغادرته لبيت ميرزا، في ساعة متأخرة من المساء ؛ لينام في المسجد أسوة بالببشمركة الآخرين ، وكانت هذه الحالة شائعة في القرى الكردية المحررة.

في الفصل {٤}/(١٧١٢ كلمة) يفتتحه الراوي الملتبس بوصف ما يعنيه صادق دوعري من ضيق و كرب سببه القلق على إينه الفتى مستو الملتحق بالعمل الفدائي منذ فترة ؛ إذ انقطعت أخباره ، ثم ينتقل السرد إلى صادق نفسه ، والذي يسترجع بطريقة الإلتفات وعبر (فلاش باك) قصة زواجه من (أنه) حين كان ببشمركة في شبابه ، و هي قصة أسرة تشوف القاريء مايتعلق بتقاليد وعادات الزواج في المجتمع الكردي (الريفي خاصة) وبعد استعادة ذكرى الزفاف ، يتحاور مع أنه حول مستو، مذكراً إياها بليلة الزفة الأثيرة؛ فنقول له: " حسناً.. إكراماً لذكرى تلك الليلة ؛ زرّ مستو" فيرضى ويقرر : "....ساسار ع غداً بالذهاب إليه.."

في الفصل {٥}/(٢٠٤١ كلمة) يروي مستو كيف أعاد البطانية التي إستعارها في الليلة البارحة من بيت ميرزا إسماعيل ، مع صرة النقود التي وجدها في طياتها؛ فشكره (صبا) زوجة ميرزا مباركة فيه خصال البيشمركاني . وبعد تناول الإفطار يتابع مستو سبيله ، حيث يخاطب نفسه: " حمداً لله ما زلت بخير؛ لم أنتن ، ولم تغزني رائحة الفتانة بعد" ثم يستغرق في استنكار تداعيات إحدى المعارك التي نكس فيها البيشمرگه، وكيف أن بعض البيشمرگه نهبوا أغراض (أميد) المناصر لهم وكيف يرجو أميد عون المسؤول (سربست) الذي يرذ عليه بكل صفاقة: " أقول لك إذهب في سبيلك ؛ وإلا سأقبض على روحك أو تردني شهيداً!"

وهذا هو أول مجابهة في الرواية بين الشخصيات السوية والفاصلة في الحركة الكردية المسلحة.

وفي هذا الفصل نتعرف من خلال مونولوج مديد لمستو إلى أحد أسوأ المسؤولين الفاسدين ، ألا وهو (محمود) الداهية الممارس لمبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" بلا وازع من ضمير؛ متحجاً بالإخلاص للحزب والشعب والوطن : " إن مصلحة الحزب فوق كل شيء. يجب على كل مخلص أن يذعن كلياً لقرارات الحزب. فنحن نقتل حتى أعضاءنا؛ في سبيل الحفاظ على وحدة صفوف الحزب . هذا ما يتطلبه التنظيم الحديدي. أجل ؛ نقتله ، ثم نذرف عليه الدمع الهتون أمام أنظار الناس..."!

ونعرف لاحقاً بأنه الرأس المخطط المدبر لقتل البيشمرگه سيابند وكذلك مستو. ثم يروي مستو قصة سيابند المغدور إستناداً إلى ما قصته والده عليه.

في الفصل {٦}/(٧٢٥ كلمة) : يأخذ (الراوي الملتبس) زمام السرد ؛ فيوسع التعريف بمحمود المسؤول المجرم وأزلامه وزبائنه السفلة الأوغاد، وعلاقته الجنسية بـ (بروانه) أخت (دلير) الديوث المقرب إليه ، ثم تتراءى الخيوط الأولى لتأمرهم على البيشمرگه المناقض لفسادهم سيابند.

في الفصل {٧}/(٣٠٤ كلمات): يصف (الراوي الملتبس) مشهد القرية المحررة وحيثيات الجفوة المستديمة بين (الخال عزيز) و(خليفة خدر)

ويعرض الراوي عبر (خليفه..) محنة (القافلة) التائهة المفقودة، والجهود المبذولة سدى للعثور عليها؛ حيث يتبين في نهاية المطاف صواب رأي الخال عزيز وخطأ إختيار (خليفه خدر) لحادي القافلة.

وفي خاتمة الفصل ينبري الشاب (جمال) القائد الجديد لكوكبة الفرسان الشباب للإعتراف بالحقيقة المرة ، واتخاذ الموقف اللازم : " وفجأة توقف ليخاطب الشباب، حيث جاشت الدماء في عروقه، وكانت أوصاله ترتعش من الإنفعال، فهذر صوته:

- أيها الشباب .. لقد إنتهت أيضاً قافلتنا هذه!

فعلق الجميع بصوت واحد:

- إنتهت إذن

- ولكننا لانستطيع الإستمرار بنون قافلة!

- أجل لانستطيع الإستمرار ... لانستطيع العيش..

- فهلّموا لنقرّر ألا نرقص بعد اليوم على طبل ومزمار كل من هبّ ودبّ ...أجل ؛ لنعرف منذ الآن فصاعدا أنفسنا حق المعرفة ؛ لكي نعرف الآخرين على حقيقتهم ، ثم إن الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته ، وما في مقدوره ان يفعله ، وليس في أن يخذع ، ثم يخذع الناس بسراب الأمانى الخاوية والأهواء.. وإذا لم يكن الراكب فارساً ؛ فسيصير عبئاً على الفرس ، و إذا لم يكن حادي القافلة أهلاً لقيادتها ؛ فسيُسبب في هلاك نفسه وضياع القافلة..."

في الفصل {٨}/(٦١١ كلمة): يطلعنا (الراوي الملتبس) على نص الرسالة الكيدية ، التي دبّجها (سلام) أحد أزلام (محمود) للإيقاع بالبيشمرگه سيابند ، ويحتوي النص على الحوار الدائر بينهما، ونستشف منه كون سيابند مثقفاً متأثراً بالفلسفة الوجودية في اتخاذ موقفه.

في الفصل {٩}/(١٩٠٩ كلمات): يستحضر مستو صورة (ميرم) أم سيابند المنكوبة المعذبة المخضمة، ويقطع صوت صفارة إستذكاره ؛ إذ يتوجب عليه الإسراع مع البيشمرگه الآخرين إلى نجدة رفاقهم الذين يخوضون معركة لصد

هجوم قوات من الجيش العراقي والجوش الكرد، و يروي مستو خلال المسير في مونولوج طويل ، وعبر تداعيات ذاكرته شهادته عن إغتيال سيابند، مستعيدا تفاصيل الواقعة مع تداخلاتها وتقاطعاتها مع معطيات الحاضر المنذرة بمصيره الشبيه بمصير سيابند المغدور، لاسيما وأن دليل الدبوث أخلص أزالام محمود قد تسلم بيندية برنو؛ لكي يبقى مع قوة المؤخرة خلال المعركة، بينما على مستو حامل الكلاشينكوف أن يكون مع الصائلين في المقدمة، وفعلًا يتحقق هاجس مستو ؛ إذ يصاب من الخلف ويؤدي جرحه البليغ إلى وفاته لاحقاً بعد اندحار العدو وعودة البيشمرکه إلى القرية، حيث يموت في مسجد القرية، بينما كانت جمهرة من الأهالي والبشمرکه تتحلقه، بينها ميرزا والخال عزيز. ويدفن في مقبرة القرية نفسها. وفي هذا الفصل يتذكر مستو أمه الحبلى بمولود جديد.

وفي الفصل الأخير {١٠}/(٥٠٩ كلمات):

يشير (الراوي الملتبس) إلى مجيء صادق دوغري أبي مستو؛ لأخذ رفات مستو لدفنه من جديد في مقبرة مدينتهم، وسرعان ما يأخذ صادق زمام السرد بطريقة (الإلتفات) وتبين لنا بأن غايته الحقيقية هي التأكد من جواب سؤاله المورق : هل كانت إصابة مستو من الأمام أم من الخلف؟! وللتيقن من الحقيقة يسأل إثنين من البشمرکه من رفاق مستو اللذين يصاحبانه حتى مشارف المدينة:

" لي سؤال يؤرقني ؛ فأرجو، و أستحلفكما بالله وكردستان أن تجيباني عنه بكل صراحة... هل كان مستو فتى جباناً يولي الدبر في المعارك؟

- كلا ، والله كان بطلاً مقداماً في كل المعارك ، بل كان في طبيعة الصائلين.. لكن لماذا سألت هذا السؤال؟!

فانطلقت منك تهيدة عميقة حارقة: - لأنه أصيب من الخلف!"

لكن حدث مقتل مستو الشهيد المغدور لا يمثل النهاية الحقيقية لهذه الرواية ، فني هذا الفصل بالذات تتجلى سيروية وصيرورة الحياة والفضال؛ حيث تروي آته أم مستو (الحبلى) حلمها الأخير المنذر بمصير مستو، وتطلب من زوجها صادق أن ينحر ذبيحة؛ نذراً لسلامتها بعد الولادة، وعندئذ يسألها صادق: " "

يا ترى ماذا نسمي إبننا هذا يا آته؟" فتجيبه: " ليسميه مستو ..إذهب و زره ، وليجد إسمًا جميلًا له" (.....) " سمّه أيضاً مستو!"

لقد تبيّن عبر العرض الخاطف السالف تولّد بضع قصص أخرى ثانوية ذات علاقة بالقصة الرئيسة بالطريقة التي يشبهها يوسا بـ (العبلة الصينية) و ماتريوشكا (الدمية الروسية) (٧) حيث تتناسل القصص الفرعية عن الرئيسة ، والتي بتجسّد نموذجها الأبرز في (ألف ليلة وليلة) ففي الإطار العام للـ (الرحيل الدامي) تطالعنا قصة مستو (و هي الرئيسة رغم عدم احتلالها لمساحة كبيرة) وتتشابك معها قصة والده صادق متداخلة ومتقاطعة معها، و ثمة تنصهر فيها قصص (القافلة) و (محمود) و (سيابند) وهي مسرودة بإسنادها إلى مستو و والده ، وتمثّل قصة مستو نقطة الإنطلاق ومحور الرواية ومركز السرد فيها ، وتليها في الأهمية قصة (القافلة) المترابطة جدليًا مع قصة مستو الرئيسة ، ثمّ قصة (سيابند) التي لا تقل أهمية عن كليهما رغم كونها ثانوية. والملاحظ في (الرحيل الدامي) هو (البناء المتوازي) لقصة القافلة الواقعة في الزمن الماضي (وهي ترمز إلى ثورة أيلول وانتكاستها ١٩٦١-١٩٧٥) مع قصة الثورة الراهنة في الرواية (منذ ١٩٧٦) رغم عدم ورود أيّ ذكر لهذه التواريخ في الرواية.

ولا ندحة من إستعارة فقرات - بتصرّف من مقال سابق لي (٨) - تبيّن (الإلتزام الذاتي) للأديب والمترجم حمه كريم عارف في حراكه الثقافي على صعد كتابة القصة والمقال والدراسة والترجمة : يتبيّن لنا أن هذا الأديب ملتزم ذاتيًا و أخلاقيًا حتى النخاع و على الصعيدين القومي والإنساني ، خارج مدار أية إيديولوجيا ضيقة؛ إذ أن " أولئك الذين يقرعون الأجراس ، لايساهمون في موكب الإحتفالات!" حسب تأكيد جان جاك روسو، ثمّ انه إذا كان شليكل قد رأى " ان المؤرّخ نبيّ يتطلّع إلى الماضي" فإن الأديب الفنان نبيّ يتطلّع حتمًا إلى المستقبل ، كما يتطلّع عبره إلى الحاضر، خلافاً للسياسي الذي يلتصق بالحاضر المحدود في أغلب الأحيان؛ و من هنا تنبع إشكالية العلاقة بينهما. وفي (الرحيل الدامي) قد ساد "هذا القلق ، في مواجهة العالم الواقعي ، الذي

يثيره الأدب الجيد في النفوس ، يمكن له ، في ظروف معينة ، أن يُترجم أيضاً إلى موقف تمرّد في مواجهة السلطة ، أو المؤسسات ، أو المعتقدات السائدة " حسب تعبير يوسا ؛ وهذا ممّا جعلنا أن نردّد مع فاسلاف هافل : " يتحوّل البشر إلى قطع من الأغنام ؛ في مجتمع يفقد القدرة على التّلفظ بكلمة (لا) " ونضيف بأن الأدباء والفنانين يرتكبون أكبر خيائته؛ إذا ما ركزوا على تمجيد مناقب عصورهم و تجاهلوا مثاليه، مثلما تفاقم النفاق الثقافي في ظل الأنظمة الشيوعية والإستراكية، التي إستمرأت النفاق السّام الذي ساهم أكبر الإسهام في حفر قبورها و دق المسامير في نعوشها...! وعليه فالصدق الصدق هو واجب الأبناء والفنانين ، من قبل ومن بعد ، حيث يجب عليهم سلخ القداسة عن كلّ ما هو زائف ؛ ف " عار على من يغني و روما تحترق! " كما صرخ لامارتين ذات مرة، وهنا تتجلّى أهمية مقولة ماريو باركاس يوسا: " وظيفة الأدب تكون تأمرية دائماً "

لقد كتب القاص والمترجم والإعلامي حمه كريم عارف هذه الرواية قبل أكثر من ربع قرن ، وبالذات في تشرين الثاني / ١٩٨٦ في قرية (ياخسر) المحرّرة حين كان في صفوف البيشمركة (إذ أمضى تسع سنوات في خندق البيشمركايتي) ولكنها نشرت على نطاق محدود في ١٩٨٨ بل أفنى بعض القادة الكرد اللاجئين آنذاك في مدينة (سقز) الإيرانية بحرق نسخها في قرية (قاسم رش) على الحدود العراقية الإيرانية في منطقة سرشنت. ورغم ذلك فقد كانت مقروءة من قبل الصفوة المثقفة من البيشمركة. وحظيت بالترجمة إلى الفارسية من قبل شايگان (أحد مثقفي الحركة المسلحة الإيرانية) في ١٩٨٧ ووزعت نسخها على نطاق محدود (قبل نشر نصّها الكردي) وقد ترجمها إلى العربية في ١٩٨٨ (فانز أبو شهاب) الذي كان شاباً عربياً موصلياً مثقفاً مستقلاً، إلّتحق بالحركة الكردية المسلحة، ومن ثم هاجر إلى أوروبا بعد أنفال ١٩٨٨ ولأن المترجم لم يكن يجيد ويتقن اللغة الكردية ؛ فقد إستعان بصورة كاملة بالترجمة التمهيدية للمؤلف نفسه؛ فكان صنيعه في الحقيقة شبه ترجمة لما فيها من تصرّفات وحذوفات كثيرة (جمل ، عبارات ، فقرات وصفحات) لكنها مع ذلك

اتسمت بالريادة والتحدي في تلك الظروف العصيبة، ناهيك عن مقدماتها الجيدة ، والملحقة هنا (بعد التنقيح) بالرواية ؛ لأهميتها الفكرية.

صدرت لحدّ الآن ثلاث طبعات لـ (الرحيل الدامي) وقد جاء على الغلاف الأخير لطبعتها الأخيرة مايلى: " كانت الرحيل الدامي كشفاً فنياً مبكراً للمرحلة التي كتبت فيها ونشرت. كانت صرخة، كانت نداءً وكانت خطاباً داعياً؛ لتغيير تكوين السلطة المسلحة ووضع الحركة التحررية آنذاك. إن مستو شخصية ذات بضعة أبعاد، فهناك غير مستو: واحد يراه ميرزا، وآخر يراه محمود الخبيث ، وآخر يرى الآخرين ؛ ولذا يظهر عبر أولئك في مخيال القارئ مستوى متعدد الأبعاد. وتكتسب الشخصيات الأخرى وجودها الفني من خلال أناس آخرين ؛ فتُعرّف وتتجسّد في ذهن القارئ ومخياله" (٩)

وهنا لابدّ من الإشارة إلى رواية (نباح) للأنيب الكردي الكبير محمد موكري، والتي صدرت أيضاً في (الجل) في ١٩٨٦ فهي بمثابة شقيقة (الرحيل الدامي) في انتقاد إشكاليات الحركة الكردية المسلحة والكشف الجسور عن المسكوت عنه، والتي أثارَت أيضاً حفيظة وردود فعل أكثر القادة السياسيين و المثقفين حدّ تدخل زعيم الإتحاد الوطني الكردستاني جلال طالباني وكتابة مقدمة لترجمتها العربية (ط ٢ في ١٩٩٨) !

و هكذا لا غرو في كلّ ما سلف عن (الرحيل الدامي) فهي تبرهن بمضمونها الجريء وبنائها الفني الراقى على ريادة القاص الكبير حمه كريم عارف في مضمار الرواية الكردية (الفنية)؛ فحين كتبها ونشرها وظهرت لها ترجمة عربية وأخرى فارسية، كانت الرواية الكردية (الفنية) مازال تحبو في أجزاء كردستان كلّها، بل لم يكن عدد الروايات الكردية قد بلغ عدد أصابع اليدين ؛ وعليه فهي تعدّ إحدى الروايات الرائدة في تاريخ الرواية الكردية (الفنية) التي تعود إرهاباتها إلى عشرينات القرن العشرين ، في حين شهدت الرواية الكردية نهضة كبيرة (عدداً و نوعاً) في تسعينات القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين ، في خضمّ المعطيات والمتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية المشهودة.

وخفاماً أقولها بأسى عميق أن ضعف حضور النقد الأدبي الحقيقي في المشهد الثقافي الكردستاني المعاصر قد تسبب في سدول ستور التعتيم على الكثير من الإنجازات الثقافية الإبداعية ، ولنا في الإنجازات الغزيرة والنوعية للكاتبة والمترجم الكبير حمه كريم عارف أسطع الأمثلة. فهو تولد ١٩٥١ كركوك ، ويحمل شهادة بكالوريوس في اللغة الكردية، ويترجم (عن اللغتين الفارسية والعربية) إلى اللغة الكردية ، وهو صحفي بارز في المشهد الثقافي الكردستاني المعاصر ، وقد أتحف المكتبة الكردية بتأليف و تراجم تربو على التسعين كتاباً (نصفها لم يرَ النور بعد) ومن تأليفه: خمس مجموعات قصصية قصيرة و رواية (الرحيل الدامي) ومن ترجماته: نينا، رواية لثابت رحمن / الغريب لكامو/ الضحية لهيرب ميدو/ بعيد عن الوطن لقاسموف / الحرية أو الموت لكازانتزاكي / قصص صمد بهرنكي / قصص تشيخوف / قصص يلماز كوناي / فان كوخ لباول ايزلر/ يهودي مالطه لمارلو/ ريتشارد الثالث لشكسبير/ الجيران لأحمد محمود / قصص عزيز نسين / الإلياذة لهوميروس/ رواية ليزرك علوي / و الأوديسة لهوميروس...

وسبق لي أن ترجمت له مجموعة (ظل الصوت و قصص أخرى) الصادرة في ٢٠٠٥ ، كما شرفني بمؤازرته في تصحيح و تدقيق و تقديم قاموسه الرائد والكبير (گوفند و زنار/ فارسي- كردي/ ١٢٠٠ صفحة من القطع الكبير) والصادر في ٢٠٠٦

إشارات:

- (١) القصة العربية والحداثة/ د. صبري حافظ/ ١٩٩٠ بغداد/ص ١٨٨
- (٢) رسائل إلى رواني شاب / ماريو بارغاس يوسا/ ترجمة: صالح علماني/ ط ١ / ٢٠٠٥ دار المدى للثقافة والنشر/ ص ٤٥.
- (٣) المعجم الأدبي/ جئور عبدالنور/ ط ١/ ١٩٧٩ بيروت / ص ٩١
- (٤) رسائل إلى رواني شاب/.....ص ٣٣
- (٥) الجمل والعبارات والفقرات المستشهد بها مقتطفة من شتى صفحات رواية (الرحيل الدامي) في ترجمتها العربية(ج.ز.)
- (٦) وهنا تجدر الإشارة أيضاً إلى الروايات القصيرة المهمة الآتية على سبيل المثال، لا الحصر: الأمير الصغير، انطوان دي سانت اكسوييري، ت: يوسف غصوب / الجلد، كورزيو مابلارته، ت: صلاح عبدالصبور / الصوت ، غابرييل اوكارا، ت: نزار مروة / صاحب الفخامة الديناصور، خوزيه كاردوسو بيريس، ت: فاضل العزاوي / النورس ، ريتشارد باخ ، ت: عزة كبة/ الأمير إحتجاب ، هوشنك گلشيري ، ت : سليم عبدالأمير حمدان/ و تلك الراححة، صنع الله إبراهيم
- (٧) رسائل إلى رواني شاب/.....ص ٩٩
- (٨) ظل الصوت و قصص أخرى/ حمه كريم عارف/ تقديم وترجمة: جلال زنگابادي / مؤسسة الشفق - كركوك ٢٠٠٥ / ص ٦
- (٩) كوجي سوور/ حمه كريم عارف/ جابي سيبه م ٢٠٠٧ / له بلاوكراره كاتى جابخانه ي شفان - هه ونير

Y.

الرحيل الدامي

(١)

- " مازالت رائحة الحليب الخام تفوح من فمك يا بني ؛ فما شأنك بذاك الميدان؟! لا تستعجل ؛ فمشوار الحياة أمامك مازال طويلاً... وإذا ما أمهل الموت امرناً ؛ فسيأتي أيضاً دورك ، بل و دور أبنائك وأحفادك..."
كلما كان يتذكر كلمات أبيه السالفة ؛ كان يشعر بالظعن في رجولته ؛ ولذا كان يصمر أكثر على إثبات رجولته وشهامته لأبيه ، بل لكل أب جبان على حدّ تعبيره.

- " إنك طفل... ما زلت طفلاً " لا يكف أبي عن ترديد هذه العبارة ، كما لو أنني لم أفطم بعد! والله لأفعلنّ ما لم يخطر ببال أحد ؛ بحيث يحرك كل شخص ملحمة لي !

- ... هذا الصبيّ الغرير؟!

- ليست الشجاعة والرجولة مرهنتين بالعمر .

- أهذا خلف صادق دوغري؟!

- ماشاء الله من حكمتك يا رب!

- وآية مثلبة لصادق دوغري ، وهو الرجل بمعنى الكلمة؟!

منذ اليوم الذي كاشف فيه أباه ، وأسَرَ له بعزمه على الإلتحاق بصفوف
 البيشمركة؛ وأبوه عابس متجهّم ، ما برح ينظر إليه شزراً، ويشاجر مع أمّه:
 - من العسير أن ينشأ صالحاً من رضع حليبك يا كلبه!
 - دام ظلك يا رجل ؛ يا من تجبن أمام الحمار وتستأسد على البرذعة!
 - كفّاك تهزّرين بالحمار والبرذعة..
 - وماذا إذن؟ أليس الكبير يسكب الماء؛ ثمّ يتزحلق الصغير...؟! وأنت نفسك
 هل فعلت القليل؟! طالما انتظرتك أمام الباب حتى الفجر، بل طالما تشققت
 قدامي على درب السجن!

(٢)

..نهض ومشى حتى باب الحوش. دسَ يده في جيب صدريّته. توقف برهة في
 مكانه، ثمّ نادى:
 - آتَه! يا آتَه! هاتي لي حافظة نقودي الموجودة تحت وسادتي.
 ألقت آتَه نظرة على أطفالها، وأخذت إليه الحافظة بسرعة، وناولتها زوجها
 مبتسمة بعنوبة:
 - إلى أين تمضي في هذا المساء يا رجل ، وأنا أعد الحمام؟
 كان صادق رجلاً نحيفاً، ذا عينين واسعتين و حاجبين معقوفين كثّين ، وعلى
 خذه خال كبير. وثمة شعرات بيض شابت سواد شعره. إنحدر نحو السوق ونيد
 الخطي وكلمات أمسه تطنّ في أذنيه:
 - سائبراً منك! لن أحسبك إبني! أيّها الجاهد اللأبالي طابور من الأطفال معلّق
 برقبتّي ؛ فهل من العدل أن تتسبّب في ...؟

كان طائر خياله يحلق عالياً مع انحدار الشمس إلى المغيب ، ثمّ يحطّ على الأيّام
 الخوالي... "كلّ وقت هو وقت الله" كان الوقت مساءً مثلما هو الآن . لم تكن آتَه
 حينذاك هزيلة الجسم كما هي الآن ؛ فقد كانت تفيض حيويّة ونشاطاً كظبية ،
 وكانت خصلات شعرها القطراني تتلألأ وهي تعارك المرأة. لكم كانت سعيدة

ببيتها وحياتها! أجل؛ كانت لا تكف عن الحلم، وكانت في الصباحات عند تناول الفطور، وأثناء صتها الشاي في الإسكنات ترفع رأسها بدلال وغنج:

- إنحر ذبيحة يا رجل...

- أهو حلم آخر جديد؟!

كانت آته ترفع عينيها شبه الخضراوين، وتعلق شفيتها المكتنزتين بطرف لسانها:

- أمهلني لأقصه عليك... رحمتك يا رب. إن شاء الله يكون فيه الخير. رأيت في حلمي كلينا وقد قصدنا ضفة نهير يجري ماؤه ررقافاً متلألئاً وهو ينحدر بعفوان، وبعض موجاته تحبو كالأطفال نحو الضفتين، حيث تتلاشى، فتتلوها موجات أخرى وأخرى... بينما كنت تتلفت ناظراً يمينا ويساراً، ثم دنوت مني وقلت: " هكذا هي الحياة أيضاً يا آته تجري بين ضفتين " لكنني لم أفهم ما كنت تعنيه؛ فغضبت ومسكت معصمي بقوة، وسحبني لنخوض النهير، حيث كانت الحصباء تتلألاً مشعة منعشة مثل البلكات في (يلك) وفجأة نددت مني صرخة، وعدت القهقري، بينما بقيت أنت وسط الماء، ورحبت تقهقه ضاحكاً علي، وإذا بالماء يتعكر بغثة وبقيض؛ فصحت: " أنج من السيل... خُصن نفسك " لكنما الإضطراب غلبك؛ فهرعت إلى الضفة الأخرى! وعندها استيقظت على بكاء (مستو)

- خير إن شاء الله... كل هذا يا امرأة؛ لأنك تحشتين رأسك بالتخييلات قبيل النوم! كأنما حدث تواً....! فذات مساء في مثل هذا الوقت، بعد بضعة أيام من حلم آته السالف، إقتحمت زمرة من الأوباش بيتنا بغثة حتى دون طرق الباب، وسأل أحدهم:

- أهذا هو بيت الأسطه صادق؟

- نعم، تفضلوا

- أهو أنت..؟

- نعم

- هيا إمش أماننا

- لكن...

- بلا أيما (لكن) و(ماكن) صن حرمة نفسك وسر بلا لخط

والتفت المتحدث إلى رجل أسمر ضخم بجنبه:

- كبل يديه بالكليجه(الجامعة) يا خلف

و هكذا إقتادك الأوغاد ، وتخليلت آتة وهي تعول ، تولول وتلطم ، ونشد شعرها وتنتف خصلات منها؛ فاحتشد حواليتها الجيران، وكانت تسمع بالكاد مايدور من كلام:

- يا للعار والشنار! أتبيكين بحضور الأعداء؟!

- صبرك يا ابنتي .. فلا بد أن ينجلي الليل مهما طال

- الخروف الذكر للذبح

- ولكن لماذا خروفي أنا بالذات يا عمّة خجي؟!

- صادق خروفا جميعاً يا ابنتي

ومن الجهة الأخرى:

- هنيئا ها هي العاقبة ؛ تمارس الكوردايتي ؟!

- السياسة مقامرة كبرى، لا يقدر على ممارستها سوى القلة

- تنكسر الجرة في الطريق إلى النبع

- ليصبه أكثر ؛ ما أشد ماكان ينظر إلينا شزراً ؛ كما لو إغتصبنا حق الكرد!

- إذا غاب العقل ؛ تشقى الروح

إقتادوك وعند منعطف الزقاق عصبوا عينيك بوصلة، ثم صعدوك إلى مؤخرة سيارة وهم يركلونك، ومددوك على أرضيتها، وصفقوا بابها، وداسوا رأسك بأقدامهم . لقد عاملوك كما لايعامل حتى الكلب! ثم إنطلقت السيارة كطلقة ، وكان رأسك يرتفع مرتطمأ بسقفها في كل مطب. شعرت بحرقه في لسانك وأنت تطلق الآهات. أطفا أحدهم سيگارته على خذك . تمعنت في الأمر بأنه من المؤكد سبقي فترة طويلة هناك على أقل تقدير، حتى ينمّل جرح خذك ، ويتسنى إخفاؤه، ومن سوء الحظ جروحك لا تنمّل بسرعة.

ثم أنزلوك ؛ حالما علا صرير فرملة السيارة، وجرجروك جرّ الذنب لحمل،
وراحوا ينهالون عليك لكما وركلا في أحد الدهاليز، وراحوا يتقاذفونك كالكرة
، فدخلت وأصابك الدوار، وفجأة إذا بصوت يتردد كأنه الرعد:
- أيها السفلة ! من أمركم أن تعاملوه هكذا؟! يا من تلقيتم الخبز بلا تربية يا
أوباش يا أوغاد! ألا ينبغي أن تتحلوا بقليل من الأدب ول؟ صحيح أن قتل الكافر
عبادة، لكنما الجور حرام!
فكفوا عن ضربك وركلك
- حلوا عصابة عينيه

نفذوا الأمر فوراً صاغرين. فواجهت رجلاً احمر المحيّا ، حليق الشارب ، تنمّ
عيناه الصغيرتان خلف نظارته عن مكر بليغ. تمنّع فيك مظهرًا إشفاقه، ثم
أغمض عينيه لحظة ، وهزّ رأسه مستنكراً وهو يقول:
- بنس ما تصرف هؤلاء الأوباش مع الرجل! حقاً ان الإنصاف صفة حميدة
للإنسان.

وبعدها شبك كفه بكفك واصطحبك إلى إحدى الغرف، ودعاك للجلوس على
كرسي، وقدم لك سيجارة، سارع بنفسه بإشعالها!
وعندها تذكرت كلام الأستاذ (برزو): " لاتخذغ أبداً يا صادق ؛ كلّ كلمة مفيدة
لهم هي نسمة عذبة تنعش أعمارهم الحافلة بالجرائم.."
- نحن نعرف يا أخي بأنك رجل وحيد وفقير وبسيط ؛ فما الداعي لتجلب
المتاعب لنفسك؟!
كنت مطرق الرأس و جسمك وحده هناك.

ثم سعل وتابع على مهل:
- إننا نعرف كلّ شيء عنك ، لكن الأفضل لنا هو أن نخبرنا بلسانك ؛ فماذا
تقول؟ مال ، نقود ، وظيفة ، راتب وكلّ ما تشتهي نفسك بين يديك.
فرددت في نفسك: " هذا الأجر الهائل مقابل خدمة صغيرة أمر لا يخلو قطعاً
من سر!" و لذت بالصمت أصم أبكم ، كأنك لم تكن موجوداً هنالك. ثم غغم

بصوت خفيض متبرماً، وراح يذرع الغرفة جينة وذهاباً، ثم توقف فجأة وهو يرنو إلى الباب:

- هات شاياً يا خلف

كان خلف طويلاً ضخماً مربعاً. دخل الغرفة حاملاً إسكانة شاي بدت كـ (دعبله) بيده . ومكث في مكانه كأنه يستفسر : " لمن يا سيدي؟ " ثم وضعها على طيلة أمامك. واستعدّ مؤثناً التحية العسكرية، واستدار وغادر الغرفة. أشعل الأمر سيجارة . تمعن فيك ، ثم حول نظره إلى حذائه الملمع حديثاً واستغرق في التفكير... ثم نقر بأصابعه البيضاء النحيلة بضع نقرات على طاولته:

- حسناً... لنعد إلى موضوعنا. أخي الطيب لا ترم بنفسك في التهلكة ؛ أخبرنا فقط بإسماء رفاقك ، ثم اذهب بسلام إلى بيتك وأهلك
أما أنت فقد كنت أصم أبكم . تطن أذناك بـ " كل حركة من شفقتك لصالحهم نسمة علية تنعش أعمارهم الحافلة بالجرانم... " و " قل : قسماً بالقرآن وبشرفي ألا أخون الكرد وكردستان"
ركل بمقدمة حذائه قدمك وتساءل:

- هم م م ...ماذا نقول الآن؟ لا تقلق ؛ سيكون الأمر طي الكتمان... وهل يجوز أن نقابل إحسانك بالإساءة لاسمح الله؟! هم م م ... يبدو أنك تحسب نفسك مغدوراً مظلوماً!

واستدار وسحب درج مكتبه وأخرج ملفه ، وقال:

- هذه ملفتك الخاصة... هل أقرأ لك ما فيها؟ الاسم: صادق بكر، معروف بـ (الأسطه صادق كبابجي) محل السكن: كركوك - محلة إمام قاسم... فهل أستمّر، أم...؟

وأطبق الملفه، وقال:

- نحن نعلم بأنكم تجمعون التبرعات والأعطية والمعاطف ، وترسلونه إلى قطاع الطرق والслаبين ، ولنقل إكراماً لخطرك إلى (المتمردين)... لأولئك الذين يدعون الثورية ! إنهم يا أخي زمرة من الأغوات إلتجأوا إلى الجبال

منفوعين بمراميتهم ومآربهم الأنانية ؛ للإخلال بأمن البلد وسيادته...أليس من الكفر أن يتطاولوا على ظل الله على الأرض؟! إنهم يشيعون الإضطراب في هذا البلد الآمن ، في هذه البقعة الشريفة! فماذا تقول أنت؟ إذا كانوا صادقين في دعوتهم ؛ فليأتوا إلى المدن ، وليشعلوا الثورة بكل ما في وسعهم ! مثلك أنت على سبيل المثال! حسناً دعنا من كل ذلك واعطنا إسم شخص واحد فقط من جماعتك ، وأنا أعدك وعد رجل لرجل ألا أدعه يُعَذِّم ؛ إكراماً لخاطرك!

ثم توقف عن الكلام وتمغن فيك ، واقترب منك على مهل، ثم نقر بسبابته أرنبة أنفك ، وهو يقول:

- أتعرف من أكون؟ ماذا يسمونني ؟ هه ...أبو مازن جزّار الأمن !

فقلت في نفسي: " خستت يا رجل بماذا تتباهي؟!"

- في هذه الغرفة بالذات قصمت ظهور أقوى الرجال وأرسلتهم كالخرفان إلى المجزرة!

ورفع يده مؤشراً:

- هذا الصف إلى الإعدام، و هذا حكم عشر سنين بالسجن ، وذاك بعشرين سنة ...ولم يعترض احد بـ (لماذا؟!) فأنا ههنا الحكومة ! فماذا تقول الآن؟ أما زلت ممتنعاً عن الكلام؟ ربّما تحسبنا نفترى عليك لاسمح الله! وإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن لي كراماتي التي كشفت بها عن خفايا كثيرة حتى الآن! ويبدو لي بأنك تود أن أستخدمها أيضاً معك ...صدقني انها كرامات تجلّ بالخزي كل مجرم !

كنت تخشى كثيراً هدوءه المصطنع...أجل ؛ إخش الماء الراكد ...لنلا يخدعك باللسان الأملس ، وكنت تريد أن تفعل شيئاً ما؛ لكي يغيّر طريقة تصرّفه معك ؛ لكي يستثير غضبك. وعندها تنهاى صوت قادر الحلاق إلى أذنيك: " أسطه صادق..الصمت أعظم موقف أحياناً"

واستدار بسرعة على كعبه ، وسحب يدك:

- أنظر إلى تلك المرأة

كانت المرأة معلقة على يسار طاولته، وهي بطول قامه رجل.

وعندها غافلك واستدار راكلاً وجهك بكل ما أوتي من قوة . سرى الخدر في وجهك، شعرت بحرارة عالية تلفحه ، وتساقطت بضع أسنان في فمك. وإذا نظرت في المرأة رأيت الدم النازف من فمك وأنفك مختلطاً مع دهان حدائه على نَفْثِكَ المبعوج، ثم لم تسمع سوى :

- تعالوا خذوا هذا الدنيء؛ كأنما القواد قد أقسم اليمين...

كان رأسك يطنّ طنباً هائلاً، وأنت على وشك الإغماء : " قل: أقسم بالقرآن وبشرقي ألا أخون الكرّد وكردستان"

حين عدت إلى وعيك ، كانت أوصالك متصلة كأنها مسبوكة. لايمكنك الإتيان بأية حركة ، واستغرقت في التفكير: ها قد حلّ اليوم الذي ينتظره (مينه زل)؛ سيذهب إلى آته ، ويغمرها بكلامه المعمول الطافح بالأكاذيب والأضاليل : " أختاه ! إطمئني .. لا تقلقي بإذن الله لن أدعك تعانيين من غياب الأسطة صادق.. حاولي فقط تدبير قليل من النقود.. سألمّ شملكما خلال بضعة أيام بإذن الله.. إعتدي علي... يكفي قليل من الصبر؛ وستفرج الغمة ويزول الضيق... ما عليك سوى أن تدبري لي بعض النقود..."

تبّاً لك يا مينه زل .. يا دنيء! كأنه يوم؛ ما إن يدخل بيتاً ؛ حتى يصيبه الخراب. لطلما رفعنا عنه التقارير: " إحدروا هذا الشخص فهو موضع الشك والريبة ! ليس مستقيماً في سلوكه وتصرفاته" لكن الرفاق لم يأخذوا التحذير في الحسبان: " إننا مطلعون على كل شيء ، لكن الحزب بحاجة أيضاً إلى أشخاص مثله"

إلهي ليت العقل ينجذ آته ؛ فتطرد تلك السافل. عهدي بآته إنها واعية. هيا يا آته ، كحلتك وجملتك ، لا تستحي وخاطبيه : " أما تستحي أيها الرجل الضخم ؛ من أين أجلب النقود؟ لو حقاً متعاطفاً معنا و أخاً طيباً! أهكذا كنت تعينني؟! لقد رافقتك صادق وأصدقائه ؛ فقتلت أعبأؤهم هكذا... ودفع الجميع الضريبة الباهظة ، بينما تغلت دوماً وتنفّر ج... ترعى مع الخرفان وتاكل مع

الذئاب ! إذا كان صادق رجلاً؛ فأمره بيده هو... هيا إغرب عن وجهي أيها القبيح المنحوس الوجه..

بغثة إنتفضت على صوت اصطفاق الباب، حيث دخل بضعة من الشرطة الغرفة لاهئين، وأمسكوا برجلك ويدك وحملوك وجرجروك كجثة، وكلما كانت ترتخي أياديهم؛ كان جسمك ينششط بالأرض، فكانوا يركلونك ويسحبونك سحباً...حتى الوصول إلى ممر دهلز مظلم...حيث تنتظر الكلاب ، ففي الدهليز كان يتردد صوت كلبين يشي بالشراسة كأنما جوعاً فترة ، حيث كان صوتهما يزداد ضراوة؛ كلما قربوك منهما ... فكدت تفقد صوابك: " إنهم جاثون بتقديمي فريسة سهلة لهما...سيمزقاني إرباً إرباً!"

- هل ستتكلّم أم لا؟

" بعد كلّ هذا الإمتهان للكرامة؛ (كلا) إياك أن تتطرق بكلمة ؛ حتى لو مت ، فالموت موت ؛ فلماذا اللبث والرفس؟! "

همس أحدهم في أذنك:

- لا عليك، سأذهب إلى البيك وأقول له: إنه تعبان جداً..سيرتاح قليلاً؛ ثم سيروح لنا بكلّ شيء من تلقاء ذاته.

لقد تبين لك بأنها مجرد خدعة مسجلة ؛ فليس ثمة أيّ كلب، والأمر كله تمثيل في تمثيل! فليطمئن بالك بعد الآن . فقد صلبت شوكتك ، واكتشفت الأعييبهم ؛ فأنا اصمّ أبكم ولا أعرف أيّ شيء"

فجأة تناهى إلى مسمعك صوت صافرة في الممر، ثم حملوك بسرعة وطرحوك بكل عنف على أرض الغرفة. وبعد مضيّ بضع دقائق ، شعرت بتّمل في أوصالك ، وكنت تشعر بأنك معرّى ، وكانت أوصالك ترتعد أحياناً، مع ومضات وجع حادّ يخترق قلبك و...دون أن تعلم كم مضى من الوقت ، إنتفضت من النوم كمخبول ، وتمعنّت في الظلام ، فلم ترَ أيّ حصان! إذن..كان ذلك حلماً ، حيث شاهدت أمام بيتكم مهراً مناسب العرف ، أغرّ الجبهة ،

مسربلاً بالغربة ، يحكّ خطمه ببابكم ملولاً . وإذا بأنّه تهرع وقد إنحنّت قامتها
الفارعة قليلاً وتعثّمت مرآة وجهها قليلاً ، وفنحت الباب :

- وَيْ وَيْ لهذا المهر! ياترى مهر من في هذا الليل...؟!

وانتهرته باستياء ؛ فانتصبت أذناه و هزّ ذيله، وانطلق يعدو حتى طرف الزقاق
، حيث توقف ، وأرسل نظرة طافحة بالغربة وراءه، وما لبث أن عاد ليقف أمام
بابكم مثلما فعل من قبل ؛ فنهرته أنّه ساخطة:

- إغرب عنا ، أكلت رأسك صاحبك! لم ينقصنا إلا هذا! كأنه جدي (ريبطة)!

فاجتاحك حق شديد ، وتمنيت لو يعود مرة أخرى ، فتهرع إليه وتمسك به.
وفجأة فجئت إثر اصطفاق باب الغرفة. كنت مصدوعاً و دائخاً ، وعيناك شبه
غانمتين. كان الرجل الأحمر وبضعة أوباش واقفين حواليك . لقد ركلك الحقير
بمقدمة حذائه بأشمنزاز وكأنه تحاشى اتساخ حذائه:

- ها...كاك صادق ! ما قولك الآن؟ أترك تعقلت وثبت إلى رشدك.. أم ...؟

كنت معتمصماً بالصمت بحيث ظننت نفسك فاقدًا القدرة على النطق.

- خلف ! سنخصص اليوم للتمتع ؛ فاهرب واجلب زوجته العاهرة. ستصطفون
جميعاً وتغتصبونها واحداً تلو الآخر.

و حالما تفوه بهذه الجمل ؛ انفكت عقدة لسانك كأخرس حقيقي إثر صدمة هائلة:

- لطفاً ضعوني أيضاً في الصف !

لما رفع صادق رأسه كان قد بلغ أمام محل قادر الحلاق ، فلوح بيده محيياً إياه ،
ثم عاد أدراجه إلى البيت مسرعاً.

- لا، لا، لماذا أتبرأ منه؟! لماذا أحرمه من أبوتي ..؟ أترك تجهل كونه من أبناء
شعب محكوم ؟! ثم أترك تجهل بأن أبناء الشعب المحكوم محكومون أن
يصيروا ببشمركة؟! ليت لساني يُنرّ قبل النطق بتلك العبارة... لا أحد يقطع على
نفسه سبيل الخير، وإلا فإن إبني متعلق جداً بدراسته... لعلّ و عسى...

(٣)

حين يرى الإنسان مكاناً ما لأول مرة ؛ يتمعن فيه بدقة، حيث تسترعي أصغر الأشياء إنتباهه، ثم تظل معالم ذلك المكان مسطورة على صفحات ذاكرته لفترة طويلة. أما إذا ما تواسجت ذكرى بهيجة أو مريرة مع مناظر ذلك المكان ومعالمه؛ فربما لن تتمكني أبداً من ذاكرته.

هاهنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسة لمعرفة الوقت صباحاً ، ظهراً و مساءً...

- ألم يحن وقت الصلاة يا خال عزيز؟

- ليس بعد. حين يصل الظل أعلى غصن من شجرة التوت ؛ يحين موعد صلاة الظهر.

حينما ينصب الليل خيمته ؛ يبدو الجبلان الواقعان على جانبي القرية كأنهما يتلاحمان ويحتضنانهما ليحميانهما من برائن الجائرين... لأحد يعرف أعمار الجبال ؛ فهي قديمة جداً، قد تكون أخذت الشهود على المآسي والفجائع والملاحم

البطولية في الوقت نفسه... ثمّة أحجار عملاقة غارزة مخالباها في صدور الجبال، عجزت حتى العواصف والأعاصير والأمطار والسيول، بل حتى القنابل أن تزعزعها وتطوّح بها بعيداً عن أحضان سفوح الجبال! كانت هناك أجمة من أشجار البلوط القصيرة المشدبة بالفؤوس منتصبة أمامه، وكان بعضها قد تعرّض لعنف ضربات الفؤوس؛ لتستحيل وقوداً للمدافيء، أو فحماً منعشاً لحركة البيع والشراء في إحدى الأسواق لبضع ساعات. وإذا ما قصدت القرية بعد الغروب؛ فليس هناك ما يذكّر سوا السبيل سوى نباح كلب أو ضوء خافت مرتعش لتقديّل ما. أمّا إذا كان الضباب مسربلاً القرية والجوّ يارداً؛ فإن الأدخنة المتصاعدة من مداخن المدافيء الخشبية تكثف الضباب.

على هذا الجانب في قممات الجبل مقبرة على إحدى الروابي تثير في نفس العابر ألف تخيل بلاقرار. أمّا إذا ألقيت نظرة من مستوى أفق هذا الجانب؛ فتبدو القرية لك كتلاً متشابكة بعشوائية وفوضى، بل أشبه ما تكون بأطلال قلعة قديمة، حيث يبدو فيها كلّ شيء ساكناً خامداً وهامداً. وقبل أن تبلغ القرية تصادف عند مشارفها نبعاً شحيح الماء، يتعسّر عليك أن تشرب جرعة من مائه أو تبلل وجهك لكثرة الطحالب فيه، وإذا ما غمرت فيه يديك؛ ستري مئات الدعاميص ذات الأذنان الهزازة تهرع لائذة بالطحالب، والضفادع المقرزة تتفاقر من بين قدميك لائذة بالفرار.

وهناك في أسفل القرية جدول شتوي الجريان. فإذا كان الشتاء مطيراً؛ فالماء يجري فيه عدة أشهر، ثمّ يجف، حيث تنتصب على ضفتيه شجيرات برية لاجدوى منها كالبتيامي سرعان ما يبيّسها القيط، أمّا المقاومة منها فتقضي عليها الأبقار والماعز وغيرها... وعلى مدار السنة لا يخلو الجدول من جثة حمار أو بغل أو عجل أو بقرة، حيث يرى المرء زمرة من الكلاب تتحلّقها بعد الشبع حتى التخمّة أو تدسّ رؤوسها فيها وذبولها تتحرك بين سيقانها...

وابتداءً من نهاية سفح الجبل ثمّة سلسلة من الربوات الصغيرة تتحدر كالموجات حتى مشارف القرية، وما بينها هنا وهناك مساحات مستوية تتخلّلها حقول صغيرة للخضراوات، وثمّة دريبات تبدو كالخيوط تتحدر وتصعد من

وعلى سفوح هذه الربوات . وحين ينال التعب منك وتجلس على سفح إحدى تلك الربوات وتشعل سيجارة ، ثم تتطلع إلى السماء ؛ فغالبا ما ترى عينك نسرا يشق عنان السماء ، أو باشقا متعلقا بالفضاء ، حيث يعلو ويدور دورات من حين لآخر ، و تتسع دوراته ؛ كلما حلق أعلى ، ثم يواصل الارتفاع حتى يستحيل مجرد نقطة صغيرة على صدر السماء ، لكنه يطبق جناحيه فجأة ويهوي بسرعة هائلة منقضا على إحدى القمم ؛ فتحس كأنما هنالك قوة خفية تجتذبه إلى الأسفل . ثم تراه سرعان ما يعود محلقا إلى العلياء ، وقد علق ريش أو وبر أو جلد بمخالبه .

وبعد ارتواء عينيك من التطلع إلى السماء ، وبعد أن تنهي تدخين سيجارتك ، وتهتم بالنهوض لمواصلة السير ، تشعر بانقباض قلبك ؛ حيث يضيق الوادي معسرا تنفسك ، وتشعر بمجال تفكيرك يضيق أيضا ؛ فتتضمنى بكل كيائك أن تستحيل باشقا ، وتحلق بكل قواك في أعالي السماء نائيا عن هذا الوادي المجذب ، لكننا القرية تناديك وتهب عليك رائحة العمران رأسك . وهل ثمة رائحة أزكى من رائحة العمران؟! إن سحر العمران يجتذب المرء من بعيد .. لقد كان الماء والعمران متلازمين دوما ، رغم شحة مياه هذه القرية...

لكي تصل وسط القرية؛ لابد من المرور بالنبع الذي تقصده النسوة والفتيات اللواتي يتقاطرن مسرعات من الأزقة للترود بالماء . وهناك تتصدع رأسك من ضجة الأطفال وثرثرة النساء وفرقة الصفانح والبراميل والشتائم وقهقهات الفتيات ومحجمات العوانس ، و مزحات وتلاسن النسوة ، وأدعية ولعنات الزوجات الحائقات على أزواجهن..

- لينتله الله بالعمى!

- شل لسانك

- بنت فاطمة المغناجة أرافت ماء وجهها!

- شيق فرجها خطف عقلها!

- هنيئا لك يا (ميناء الحولاء

- يا (ملكيتة) تماديت في معاشرة (أحول)

- عين الحسود تبلى بالعمى!
- ليتك صرت زوجة أخي
- بالله عليكم إفسحن لي المجال فأنا مستعجلة..
- إنها محقة فثورها راجع !
- ليتني كنت مثلها!
- أعماك الله ! لماذا غمرت يدك في مائي، ألا تعلمين بأنني سأغتسل به من الجنابات؟!
- وأنا أعلل نفسي أن لي زوجاً، ليت الحمى الصفراء فتكت بجسمه!
- و ماذا بقي منك يا شمطاء؟!

واعجباها! إن العمر والزمن يمضيان من حيث لاتشعر بهما ، وكل تلك المشاهد تتراءى بجلاء لناظري لحذ الآن... ليلاً كانت الرياح تندس بصفيها بين أغصان وفروع الأشجار والشجيرات، وأخذت زخات المطر تساقط ، فنفنت رائحة الثرى المتبلل إلى رأسي، فغمرتني بنشوة تضاهي النشوة التي تبعثها رائحة حسناء شهوانية مغناجة ؛ فتبين لي ليلتذاك أن تينك الراحنتين ، رائحة الثرى المندى بالمطر حديثاً و رائحة المرأة ، أزليتان لن تبليا أبداً. ثم ماذا عن كل تلك الهمسات والغمغات والهمهمات الصادرة عن أحضان الليل؟! ياه! ما هو صوت الليل؟ يا له من صوت عسير الوصف ، بل لايمكن وصفه بتاتاً، فهو يحتضن آلاف الهواجس والوساسوس والإرتعاشات والعذابات والرغبات والغربة والألفة والكركرات والقهقهات والخوف والأمال والأهات والأنات والزفرات والإعياء والإرتياح والقلق والطمانينة وثناء الحيوانات الجبلية وزقزقة وهديل الطيور الضالة الباحثة عن أعشاشها...والقمم والسفوح والسهول والأصوات والأصداء يحتضنها الليل كلها ويهددها كأعر بنيه...لأعتقد بوجود ملاذ للأسرار كمثل الليل.

وليلتذ كنا أنا وأسرة ميرزا اسماعيل إضافة أخرى إلى أسرار الليل!
مثل شبح متعب القدمين إستوقفني باب عتيق لحوش ذي سياج منخفض ، ورحت أختلس النظر والسمع هنا وهناك ؛ لعلني أرى وأسمع حركة ، ضوءاً

..صوتاً... لكنني لم أسمع سوى نخير وخنين الأبقار المحلوقة حديثاً وهي تجتر علفها. وبعدها تنأهت أزيز زيت على النار إلى سمعي ، ولايستطيع الجائع مقاومة رائحة زيت الفلي ، ومن حسن الحظ أن القرويين الكرد يتناولون العشاء متأخرين ، بل يرحلون بأيّ عابر سبيل يطرق بابهم ، فكيف الحال مع الضيف؟ فتشجعت وطرقت الباب :

- يا أهل الدار!

فبدا طيف من شق الباب العلوي متسانلاً بصوت رفيق:

- من ؟

- أنا.. يا أختاه..أ تستقبلون الضيف؟

- تفضل يا أخ ..الضيف حبيب الله.

ترنّنت قليلاً قبل أن تقول بصوت أصفى وأرق:

- مهلاً حتى آتي بفانوس ؛ فالحوش مظلم

- لا تتعبني نفسك ؛ فمعي مصباح يدوي

وارتقيت السلم الخشبي المتداعي بكامل عدتي وعتادي وبنديتي. ومايزال صرير السلم يتردد في تلافيف ذاكرتي. لقد كنت منهك القوى ، وكانت ثيابي مبتلة قليلاً.

- منذ زمن وأنا أقول لرجلي : " أصلح هذا السلم الموروث ببضعة مسامير يا ميرزا"

وفتحت الباب:

- تفضل يا أخ ..تفضل بالدخول

ودخلت الغرفة والشعور بالخل يغشاني :

- السلام عليكم

نهض عن الخوان رجل متوسط العمر، ضامر الوجه ،وسيع العينين ومعقوف الأنف:

- وعليكم السلام.. أهلاً وسهلاً..تفضل تفضل..

فوضعت بندقيتي جانبا ، وأخرجت منديلي من جيبى ومسحتها، ثم جلست قرب الخوان، وقد أسالت راحة (اللبنية) لعابى...

- أهلا ومرحبا بك

إبتلعت لعابى :

- سلمك الله عشت

- هيا يا (صبا) هاتي الطعام

كانت صبا امرأة تفيض بالحيوية. كان شعرها مخضبا بالحناء. وكانت ضامرة الخدين قليلا وذات عينين مائلتين. فخرجت ، ثم عادت بعد هنيهات جالبة صحناً من اللبنة الساخنة المزينة وبصلة على صينية، ووضعتها أمامي وقالت:

- تفضل

- والآن يا صبا ضعي حزمة حطب في المدفأة

وبعد تناول العشاء وشرب الشاي ، إلتمست الدفء والراحة، وجفت ثيابي ، وأوشكت على القول: " من فضلكم أعطوني بطانية.. سأذهب لأنام في المسجد" فسبقني ميرزا كانه فطن إلى مايدور في خلدي:

- إيه..يا أخانا البيشمرکه ! أراك تتعجل الإنصراف..مازال الوقت مبكراً. إبق لنردش قليلا ونفرّج عن قلوبنا.

لم تكن لدي طاقة للكلام ؛ فلذت بالصمت ، ورددت في سري: " حان أن تدفع الثمن ! مادمت قد تناولت لقمة طعام ؛ وجب عليك أن تدفع الضريبة! آية درشنة سلمك الله؟! ولكن لم لا؟! فلينصب عليّ الليلة إضطهاد هذا الرجل ، ولأستمع إليه ، ثم ليس شرطاً أن أصغي إليه بجد ، فلولا هذه العلاقات الإجتماعية الباهتة ؛ لضاق الإنسان ذرعاً بوجوده...ومن المحاسن أن تبعث هذه العلاقات الواهية أحيانا بهجة خرقاء في نفس الإنسان ، وتشغله أو ينشغل بها عن نفسه ، أو يفرض وحدته عنوة على شخص آخر "

- هيا يا امرأة صتي لنا الشاي ثانية

ثم وضع استكان شاي أمامي وآخر لنفسه. خبط شايه ؛ فاستثارني رنين احتكاك
ملعقته بالإستكان... وإذا بصوت غليظ أجش يتناهي من الخارج :

- ميرزا هل أنت في البيت؟

- هلمّي يا امرأة شوفي من هو؟

عيسيت صبا وغمغمت متذمرة وأجابت بهدوء:

- ومن يكون غير (اللاخليفة)؟!

وخرجت من الغرفة لتستقبله:

- أهو أنت يا سيّد خليفة؟! تفضل ادخل.. ميرزا موجود

فدخل الغرفة. رجل بطين ، عريض اللحية. و سدى الخّ عليه ميرزا ليتصنّر
المجلس ؛ فقد قرفص قرب باب الغرفة:

- هذا غير مناسب يا خليفة ؛ فكن رجلاً طيباً وتصنّر المجلس

- سلمك الله يا ميرزا لا بأس ، ولكن عيل صبري ؛ فقد حان وقت عودة القافلة،

ولكن لاأثر لهم... أخشى أن.....فماذا نفعل في رأيك؟

ألقي ميرزا عليّ نظرة ، وهو يفكر ، ثم قال:

- من يقود القافلة؟

- شيخه ابن كاكه شيخ

- ها... إنه رجلك المصطفى ! قسماً بالله يا خليفة تأكد بأن قافلة يقودها جاهل

أخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونييه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا

في هوة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها! حتى الآن لم

تقيموا لرأينا أي وزن... لقد كنا بمثابة شهود لأكثر... لأنكم لا تتذكروننا إلا إذا

حاقّت بكم النانيات... والآن ليذهب المتنعم بخيرات القافلة للبحث عنها... فمنذ أن

وجدت كانت خيراتها من نصيبكم... أمّا نحن فكنا مجرد خدم منبوزين نرّمكم

جاحظي العيون ، لا ناقة لنا ولا جمل... زرعنا الكثير ولم نحصد غير الشوك!

فإن كان بدافع الشهامة ؛ فكفي ، وإن كان بدافع الغباء فكفي أيضاً...!

وإذا بصوت والدي يرنّ في ذاكرتي: " لقد ساهمنا يا بني بنصيبنا في القافلة ؛

فعمك أحد شهداء القافلة البارزين... من ذا لا يترحم على (عزيز دوغري) ولا

يذكره بالخير؛ كلما ورد ذكره؟! " و لو كنت أحبيه : " إن مافعله يخصه هو ،
كفاك تعاش على حساب الموتى ، وتنبش الدفاتر العتيقة ؛ فذلك من علامات
الإفلاس ! فلا أحد يعبر النهر بمسباحة سواء ! ألف (لكن) لمن دس هذه
الأسطوانة في أدمغتك " لو كنت أحبه هكذا ؛ لأصمني ، وردد : " خضت
ألف محنة لأرني هذا الولد وإذا به يجازيني هكذا! "

نهض خليفه ومضى مستاء . ارتشف ميرزا شايه ، ودفع الإستكان نحو صبا :

- صبي لنا الشاي من جديد يا امرأة

ألقي علي نظرة وشهق شهقة عميقة ثم قال :

- أتعرف يا أختنا البيشمرکه أن البيشمرگايتي (العمل القداني) عبادة خالصة بلا
رياء؟!

تساءلت على مضض :

- كيف؟

تنحنح قليلا وتابع كلامه :

- مثلما تكون العبادة وشيعة وتقي بين العبد والله وعشقا خالصا بلا رياء، تكون
القدانيّة عشقا نزيها زكيا للأرض والحريّة والشعب. إن البيشمرکه مدلل الناس
والأرض ؛ فالأرض بلا بيشمرکه مثل بسطان بلا سور ! ويل للناس والأرض
التي تخلو من البيشمرکه! البيشمرکه هو من يريق دمه عند أقدام الناس
والأرض ، ويستحيل ورده يفوح شذاها دوما ، دون انتظار جزاء أو ثناء .

كنت منقبض النفس وفي غاية الضجر ؛ وقد عجزت حتى كلمات ميرزا
الشيقة أن تهزني ، أجل . بف " المطحنة في خيال ، والطخان في خيال آخر " ! لقد
شعرت أن كلماته وليدة ذهن محشو حشوا ، وليست وليدة ذهن مفتوح مبتكر . وإذا
رفعت رأسي ، كانت عينا صبا السوداءوان العميقتان تحطآن علي ، كأنها تشفق
علي ، بينما كان ميرزا يبدو تواقا إلى الحديث ، فابتسم لي واستأنف :

- فما رأيك يا صاح؟

- لا أدري ماذا أقول.. فأنا أحسب نفسي بيشمرکه (قدانيّة) ، وليت كل الناس
يقيمون البيشمرکه مثلك.

- لا تبالي.. سيأتي ذلك اليوم...

- لكن يا عزيزي ميرزا يجب أن تكون البيشمرگايي (الفدائيّة) في إطار الثورة ؛ وإلا...

فقاطعي:

- أليست الثورة قائمة عندنا والحمد لله؟!

سكنت برهة ، ثم قلت:

- ولكن يا ميرزا العزيز ليس كلّ من حمل السلاح ببيشمرگه...صنّقي أن أكثرنا فزاعات عليها البنّادق معلقة! إن البيشمرگه هو من أشعل الثورة العارمة في ذاته أولاً. إن البيشمرگايي ، باختصار ، هي جوهر الثورة ولبّها؛ فالثورة تغيير...تغيير في ميادين الحياة كلّها... أمّا ما تحمد الله عليه فهو الإقتال...شبه حركة مسلّحة. صحيح إننا نخوض معرك بطوليّة ، ولكنّ إعلم بأننا نقاتل منذ أن وجدنا، فإذا لم نحول هذا (القتال) إلى(ثورة)؛ سنظلّ على هذا الحال نقاتل ولا نغيّر ولا نحقق شيئاً؛ لذا وجب علينا التفكير في أن نحول القتال إلى ثورة، وقتالنا العادل قريب من الثورة ، لحسن الحظ، ويمكن بلوغ مرحلة الثورة؛ إذا بذلنا الجهود..وعندنا أناس ثوريّون ، لكنهم للأسف لم يتجمّعوا ويتحدوا بعد تحت خيمة ثورة...ويجب أن تنطبع حركتنا بطابع الكادحين، وأن نحذر من البرجوازيين؛ لأن من شيمة البرجوازيين في العالم قاطبة ان يمضوا شوطاً أو شوطين ، ثمّ ينحرفون عن الطريق ، بحيث تغدو الثورة مصدر خشية وتهديد لهم!

بدا ميرزا وكأنه لم يفقه جيّداً ما طرحته ؛ فتأامب وقال:

- الله كريم!

والنفت إلى زوجته:

- يا امرأة هاتي البطانيّة الجديدة لأخيها؛ فهو يبدو متعباً وينوي الإنصراف.

لملمت نفسي وتكبّيت بندقيّتي وتناولت البطانيّة، وحيثهم " تصبحون على خير" واتخذت طريقي إلى المسجد...كان وبر البطانيّة الوثيرة تحت إبطي يدغدغني..وأنا أحدث نفسي: "إني أفهمك يا ميرزا..أعرف مقصدك..صحيح أن

اليשמركايتي عبادة، ولكنك لاتدرك في أية حماة أسنة نتمرغ! حماة تعج بالصوص والأفاقين والمهرجين والمنطفلين والمشعوذين والمداهنين والمقاولين والتافهين والمرائين والسياسيين التجار المحترفين ! أما ترى النيران تحرق بنا من كل صوب ؛ إذا بقينا مأكثين في المستنقع ونغزونا الراحة الفتنة شيئا فشيئا، وإذا ما اخترقنا الطوق خارجين ؛ فنصير طعما للنيران؟! فماذا نفعل يا ميرزا؟ لابد ، كما يقول الأستاذ محمد، أن نقذف النتانة في النار بأيدينا؛ لكي نمثلك أنفسنا تماما.."

أُفْلِتَ لَفْظَةُ مِيرْزَا مِنْ فَمِي عَفْوِيًّا وَتَبِعَهَا صَدَاهَا . تَلَفَّتْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وَحَثَّتْ خَطَايَا نَحْوَ الْمَسْجِدِ ، وَلَمَّا اقْتَرَبَتْ مِنْهُ ؛ صَاحَ بِی الْبَيْشْمَرْكَةُ الْخَفِيرُ :

- من القادم؟

۱۰۰ - انا... بیستمی گه

و اقتربت و حبيته:

- طابت ليلتك

- طابت ليلتك

سلطان علی نور مصباحہ الیدوی:

— أهو أنت يا مستو؟ ووحدك؟

ثم دلفت إلى المسجد، حيث كان اليشمركه مستلقين هنا وهناك، بعضهم نائم يشخر، وبعضهم يغالبه النعاس، ويتبادل البعض الآخر أحاديث ذات شجون. ثمة كان أحدهم في الزاوية البعيدة يرفو معطفه المهلهل. كانت المدفأة الخشبية مضطربة اللهب. فككت حزام عتادي و وضعت عليه بندقيتي، وتوسدت معطفي ونشرت البطانية لأتغطى بها، وإذا بشيء ما يسقط منها، ففتشت عنه على نور الفانوس الخافت فوجدت صرة حمراء صغيرة معقودة، تحسستها بيدي، بدت محتوية على نقود، فدستها في جيب قميصي، واضطجعت...

(٤)

طغى الكرب والضيق عليه في ذلك المساء، ولم تعد عنده الهمة لمتابعة فروض أطفاله وتحضير دروسهم وسرد الحكايات الحلوة لهم ؛ حتى يغلبهم النعاس ويناموا كمثل الأماسي الماضية. تناول علبة سكاثره و شخاطفه ودخل غرفته ، حيث تمدد على السرير ، ثم أشعل سيكارة ، وركز نظراته على السقف ، وراح دخان سيكارتة يتحلزن في فضاء الغرفة، ثم يتلاشى تدريجياً... وراح خياله مثل الدخان يشكل هالات لا تلبث أن تتبدد ...

- صدقني يا كاكه فرج ما بقلقتي هو انه مازال صبيًا ...

- حفظك الله ما هذا القول ؛ فهو رجل كامل ماشاء الله ! كيف يكون طفلاً من بلغ المرحلة الجامعية؟! هكذا نشأنا على عدم الثقة بأنفسنا. ثم تذكر يا أسطه صادق بأن البنين لا يكبرون في نظر الآباء والأمهات ، بل يظلون صغاراً حتى لو بلغوا عرش الملوك!

" أجل .. إنه محق ؛ يظل البنون صغاراً في نظر الآباء والأمهات ، ولكن ليس سواي يعلم بما آل إليه حال هذا الولد النزق ، فقد عدا فريسة للحزن والقلق، واغتم جداً لعدم إكماله دراسته.. إن الحزن والقلق يهذان حتى الجبال وليس ابن

أدم فحسب ، بل يتركه مثيراً كستان ظامي... لأعتقد أبداً بقدرته على تدبير وضعه؛ مادام لم يعايش الوضع هناك ، ولم يتعرف على الثورة والبيشمركة والفلاحين إلا عبر الكتب والمنشورات؛ فكيف سيدبر أمره الآن؟! فليكن مايكون بشرط أن يظل حياً! فهو شاب ، وليفعل مايشاء... فعلى الأقل سيخبر تجارب كثيرة... أواه ما أشد تعلقنا بالأولاد! أنظر إلى أنه المكنزة كيف نحل جسمها والتصق جلدها بعظامها و ترمد لون جفها وغارت عيناها. كيف لاتتأثر وهي أم؟! المسكينة لاتجرو حتى على ذكر اسمه خوفاً منك؛ فلذا ينبغي أن تطيب خاطرها. إن الأباء والأمهات في هذه البلاد يحبون بعضهم البعض ؛ من أجل البنين والبنات ، وما إن ينجبوا طفلاً حتى ينسوا أنفسهم.. فعليه يجب ألا تكون فظ القلب كذاك النزق ، وبالأخص مع أنه.. أتعلم كم أنت مدين لهذه المرأة؟! انه لا يحصى . ما أكبر فضلها عليك! فضلاً عن أن أهلها يحسبونك في منزلة ابن لهم. صحيح انهم تحججوا و تمنعوا في البداية ولوعوا قلبك كثيراً ، ولكن لا لوم عليهم ؛ فقد كنت رجلاً فقيراً وغريباً... أجل.. كنت بيشمرکه بسيطاً، ولم يكن لأنه نذب في موقفهم ، بل وقفت إلى جنبك بكل ما في وسعها ، حد الاستعداد للهرب معك ، إلا أن لم يكن فعلاً يلبق بالبيشمركة... جازى الله خيراً آل ميرزا حسن الذين تدخلوا ويسروا الأمر... ياه! كأنما الأمر يحدث الآن ... فقد قصد ميرزا حسن بيت أهل أنه ؛ كي يستوضحهم الرد ، واستغرق ذلك أسبوعاً، ولكن يا له من أسبوع ثقيل! كان قلبك في قبضتك : " يكون ..لا يكون؟" وفي نهايته قدمت سيارة من المدينة، وتمنيت لو تهرع إليها كطفل ، لكنك خجلت ، أو الأصح توجست خشية الخيبة ؛ فقد سبق وأن بعثت إليهم أشخاصاً آخرين ، لكنهم عادوا والخيبة تسبقهم...كنت تخشى أن يحصل لميرزا حسن ما حصل لهم ؛ فينهار قصرى مالك وأمانيك . وطالما كنت تؤمل نفسك : " لا بأس إن لم يتحقق الآن ؛ بشرط ألا تتزوج هي وتنتظرني" وعندها أسرعت إلى الخالة (حلاو) واستعطفها لنذهب وتستقضي ما إذا كان ميرزا حسن قد عاد بسيارة القرية، أم لا؟ فذهبت الخالة حلاو ولا أحد يتمنى لحظات انتظارك المقلق

على آخر من الجمر، وبعد فترة وجيزة عادت وهي تبتسم من بعيد... وحالما دخلت المجاز؛ نهضت وابتدتها مضطرباً:

- أبشري يا خالة

- فدتك خالتك بروحها مبروك

لم تدرك كيف تتصرف من فرط غبطتك؛ إذ كنت تصبو إلى احتضان الخالة حلاو وشمها.. ولكنك تماكنت نفسك وسألت:

- إيه يا خالتي حدثيني بالتفاصيل، حسناً لم لم تحضر أمي؟

تطلعت إليك بؤء، فتحسست وجهها الطافح بالبشر:

- وما حاجتك لأمك؟ ومن أكون أنا هنا؟ أمك لم تحضر؛ لإنشغالها بتحضير

ثياب العروس. وغدا سنرجع أنا وميرزا حسن بسيارة البيكاب

- لماذا؟

- ألا تدري بأني سأزفها إليك بنفسي؟ سترى آية عروس مزدانة سأزفها لولدي!

سأعلمها خلال يومين فقط كل مايتعلق بالحياة الزوجية ما لم تتعلمه خلال عمرها... سأزف إليك عروساً متفهمة؛ بحيث تظل طول عمرك ترسل الرحمة إلى

قبري.

كنت تكاد أن تطير فرحاً، وخرجت دون توديع الخالة حلاو، ووجدت القرية

لا تسع فرحتك؛ فخرجت منها، و رحت تتمشي... وشعرت بأن تحقيق الأمل

يمنح المرء الغيرة والرجولة مثل ما يمنحه السلاح للشبان المتحمسين؛ بحيث

تغمر الثقة روح المرء ويشعر بقوة رجولته..

وفي مساء ذلك اليوم خولت ميرزا حسن وكيلاً لك لعقد قرانك، وقد بشرك بأنه

قد دعا فرسان القرى المجاورة للحضور واستقبال العروس في يوم الإثنين

المقبل... ولكن الوجوم استبد بك بدلاً عن الإبتهاج، فقرأ ميرزا مايدور في

خلدك وتساءل:

- بماذا تفكر؟ أفي مصاريف حفلة العرس؟ لا لوم عليك؛ فأنت ببشركه وشبه

معدم، ولكن أعلم يا بني أن من عاداتنا وتقاليدنا أن تساهم القرية كلها في تدبير

المصاريف، ليس إكراماً لك فحسب، بل هي التقاليد يا ولدي، ومادمت

بیشمرگه ؛ ستفعل أكثر من المعتاد... سيساهم كل بيت حسب مقدوره في إعداد الطعام الذي سيتناوله الحضور في مضيف القرية ؛ لذا يسوؤني أن تغتم وتحسب نفسك مدينا لنا ؛ إنما نفعل ذلك لأحد أبنائنا... قد يكون وجومك لصدمتك بالخبر السعيد! غدا سأذهب والخالة حلاو، وفي عصر الإثنين المبارك الآتي سنعود جالبين العروس بإذن الله...

ثم حلّ الإثنين الموعود، وقد استعدّ الجميع بكامل زينتهم كباراً وصغاراً ، شباناً وشابات ، رجالاً ونساء... كانت رائحة الثمن المطبوخ واللحم المقلي والحطب المحروق حتى الرطب تتصاعد من مداخن مواقد أهالي القرية تسكر المرء وتشهد على سخاء أولئك الناس الطيبين . كان الشتاء يودع آخر أيامه، وكانت الأرض ريانة والسماء صافية.. وكان رأسا صف المدبكين والمدبكات لا يحصرهما النظر . لقد كان اليوم يوم العشاق والعاشقات وهمساتهم وغمزاتهم ، وكانت هلاهل النسوة الجهيّرة وصيحات الراقصين ورنين الحلّي ورجرجة النهود والعرق الناضح من خدود الفتيات ، وأصوات العيارات النارية المنطلقة من البنادق والمسدسات . كل ذلك كان يبيث تيّار الطمأنينة في كيائك ، ولم تقف ساكناً فدبكت فترة ، لكن أترابك سرعان ما أخرجوك من الدبكة : " كاكه صادق يجب ألا تتعب نفسك" و " إستبق قواك لليل!" و " أخذر دبكتك لعروسك في الليل!" وطبعاً كنت تتعنى ذلك من الله ؛ فصعدت مع (كاكه رش) فوق سطح المسجد ، حيث كانت عيناك ترقبان الطريق ، وعندها قال كاكه رش:

- عزيزي دوغري حين تدخل الليلة على عروسك لاتهمج عليها كالكردي الذي لم ير اللين في عمره! فقد تترك ليلة الدخلة أثارها سلباً أو إيجاباً على مدى الحياة الزوجية؛ لذا على العريس أن يتعامل بهدوء وروية مع عروسه ويزيل خجلها ويجتنبها إليه... واعلم حين تكونان في الحجلة وحدكما ، ستكون هناك جمهرة من الفتية والشبان أمام بابها يتصايحون : " هيا هيا ألم تنته؟! عجل! ما الخطب؟!" وغيرها من الترهات. لأن فض بكاره العروس بسرعة يعد علامة فارقة للرجولة حسب العقليّة العشائرية المتخلّفة ! وطبعاً يتجمهر بعضهم أمام الباب ؛ لكي يطلق الأعيّرة النارية عند خروج العريس ، ثم يتفرقون ، وهنا

يمكنك أن تخدعهم ؛ فتخرج في الوقت المناسب ؛ لكي يطلقوا أعيرتهم وينصرفوا ، فتعود إلى عروسك .

ولما رفعت رأسك متطلعا إلى مشارف القرية ؛ إذا بالفرسان يسارعون لإستقبال موكب العروس ، فنظرت بمنظارك و رأيت العروس تنزل من السيارة، وكان يقابها الكحلي يبرق من بعيد. وأركبوا العروس على فرس يمك (لاله حمه) عناتها ويمك (صالحوك) و(احمد جاو جوان) بركابيهما، وحملوا جوادين آخرين بأغراض العروس، وركبت الخالة حلاو أحدهما، وسار الموكب الهوينى، ومضى الفرسان المتعلقون يبدون أفانين فروسيّتهم، بينما كان الشبان ذوو البنادق والمسدسات من الصاعدين على سطوح بيوت القرية ينتظرون الطلقة الأولى لإستقبال الموكب لينخرطوا في إطلاق العيارات النارية. وقد ناولك أحدهم قصبه طويلة لتضرب بها عصاة رأس العروس عند دخولها؛ لتفرض هيبتك وهيمنتك عليها حسب التقاليد المتوارثة! وكان بضعة آخرين يحملون أكياسا ملوها الجكليت والحامض حلو والزبيب والحبيّة المشوية لنثرها على العروس ؛ تفاولا بمقدمها الميمون حسب التقاليد. وحالما أطلق أحدهم الطلقة الأولى ؛ تعالى أزيز الرصاص من كل صوب ، والرجل الرجل هو كل من يطلق عددا أكبر من الطلقات ؛ برهانا على إخلاصه للعريس والعروس ، ولكي يبتهج قلب العروس : " كلّ هذا الفرح من أجلي...!" ثم وصلت العروس قرب البيت ، لكنها أبت أن ترتجل: " لن أنزل!" ففكرت : " ألم تخبرني الخالة حلاو بأنها ستزف إليّ عروسا متفهة مطواعة؛ فأترحم عليها مادمت حيّا؟" ولم يكن الحشد يتوقع موقفها هذا، وكاد البعض أن يهين الدليلة خالة حلاو، والتي سارعت إلى حل المشكلة: " ترتجلي يا ابنة الكرام.. فتحجبت : " لن أترجل ؛ حتى تعطوا بخشيشا جيّدا لمرافقي فرسي و لي أيضا" وسرعان ما استجابوا لطلب العروس ، ثم قالت إحدى النسوة ضاحكة مازحة : " لقد نفذنا طلبك الخاص بالمرافقين ، أما بخشيشك فهو الثور الأحمر!" وقد فهمت لاحقا أن المقصود ب (الثور الأحمر) هو العريس !

مع أذان العشاء أدخلوك على العروس، فاتفردت بها في الحجرة ، حيث كانت رائحة البخور المحترق والقرنفل وحناء يديها وقدميها وعيناها المكحلان تبعث في جوارحك النشوة.. وإذا بهم يصيحون بعد فترة وجيزة وينادونك متسانلين:
- ألم تنته يا صادق؟!

فانتفضت آتة والتصقت بك باستحياء ، و همست:

- ويلاه! ما هذا اللغط؟! لقد أفتضحنا!

- هيا عجل يا ولد... ما الخطب؟! لو كانت ربيبة عدوٍ لإحتلتها منذ وقت طويل!
وعندها سارعت بالخروج إليهم ؛ فأطلق كل واحد منهم إطلاقته وصافحوك ، وسرعان ما إنصرفوا...

لم تمض سنة واحدة على زواجك حتى ارتأيت أن تهجر السلاح ؛ إذ شملت في جو الحركة رائحة شقاق وانشقاق ، فتركت البيشمركايتي ، لكن قسمك ظل راسخاً في بالك: " أقسم بالقرآن و بشرفي ألا أخون الكرد وكردستان " ثم إنك لم تصبح مقاولاً مثل بعضهم ، بل لم تتمكن من تكوين بيت متواضع إلا بشق النفس... بالإقتراض والعمل المرهق وإعانة الأقرباء.

ثم أشعلت سيجارة أخرى " ما أغرب عوطف الأبناء والأمهات! كأنما ليس عندكم سوى مستو! لكن حتى لو كان لك ألف ابن ؛ ثق أن لكل واحد منهم مكانته الخاصة..."

دخلت أنه الغرفة، وجلست متمسكة على السرير الذي صرّ صريراً:

- لم أعهدك قاسي القلب هكذا يا رجل ؛ فمنذ فترة طويلة لاتسأل عن ولدنا، أو تحاول تقصي أخباره! فهو لم يبتز ذيل حمار الإمام الويس ؛ بل حري بك أن تقتخر به...

هم .. م ... إنه عنيد .. عنيد جداً.. وأنا أعرف به منك يا امرأة، ولا أستبعد إمتناعه عن مخاطبتي ؛ إذا ذهبت إليه!

- لكنه مسكين يا رجل.. يشعر بالجفاء والوحدة ويعاني من الحرج والخجل بين رفاقه...

وانقلب صادق على جنبه، فزحفت آتة إلى جنبه على السرير، واستنار صرير السرير رغبتهما...ثم كركر صادق؛ فسألته آتة:

- على مَ تضحك؟!

- أما تذكرين ليلة زفتك إليّ في (باخه كون) في إحدى غرف بيت الشيخ كريم، حيث تجمهر الفتية والشباب أمام الباب وهم يصيحون: " ما الخطب؟! لو كانت ربيبة للعدو؛ لإحتلتها منذ وقت طويل!"

فضحكا، ثم قالت آتة:

- حسنا..إكراما لذكرى تلك الليلة؛ زُرْ ابنتنا مستور.

تطلع في وجهها بنظرات طافحة بالرضا والرفقة، وهو يحثث نفسه: " والله أعلم أيّ ولد مغرور هو! قد يشيح بوجهه عني حتى لو زرتة، لكنما مهما يكن؛ فهو من دمي ولحمي، وأنا أحبه، سأسارع غدا بالذهاب إليه.."

(٥)

حين حلّ الصباح، سارعتُ بإعادة البطانية. كانت زوجة ميرزا تحلب بقرة، ورأيت قطرات الحليب تنزل على ساعديها المكتنزين:

- تفضلْ كاكه إصعدْ إلى فوق ساجيء بسرعة

لم أحبذ الصعود، لكنني اضطررت إلى ذلك لإنشغالها وصرّة النقود...وبعد هنيهات صعدت:

- أهلا سهلا بك على الراح والسعة

- أين ميرزا؟

- ذهب لإلحاق الماعز بالراعي، قد يعود بعد قليل

- عذرا يا أختاه..كانت هذه الصرّة في ثنایا بطانيتكم، وقد هممت بإعادتها إليكم في الليلة البارحة، لكنما الوقت كان متأخرا؛ فأرجو المعذرة على تأخري... فشحب وجهها؛ حالما وقع نظرها على الصرّة ولطمت خديها:

- الويل لي! ليقطعوا ضفائري؛ ماذا كان سيحصل لو لم تقع بيد ابن حلال مثلك؟!

" البيشمركايتي محبة خالصة بلا رياء "

- جزاك الله كل خير، ودام قلبك عامراً بالبشر؛ مثلما أبهجت قلبي ، ولبت ميرزا كان هنا

" البيشمركه مدلل الناس والأرض "

- أدام الله ظل البيشمركه على رؤوسنا

- " البيشمركه زهرة يفوح شذاها دوماً.. "

تناولت الإفطار، وتابعت سبيلي " حمداً لله مازلت بخير؛ لم أنتن ، ولم تغزني رائحة النتانة بعد" وخرجت على مهل من القرية، وعلى المزبلة الواقعة عند مشارفها، صادفتني دجاجة مع سرب كتاكيتها، وإذا بالكتاكيت تترأض نحو أمها التي نشرت جناحيها وتقذمت نحوي " حتى الدجاجة تذود عن فراخها"! ومررت مشاهد عدة على شريط ذاكرتي ومنها عودتنا من تلك المعركة الطاحنة ، حيث كنت أشعر بأن الكثيرين من البيشمركه يعانون من إنتكاسة مؤقتة عابرة، ولكن من يعاني من إنتكاسة كهذه غالباً ما يشكل خطراً؛ فهو يصب جام غضب انتكاسته على كل شيء، بل على أقرب الناس إليه، ولم يزل مشهد خالد ملا صالح ماثلاً في ذاكرتي ، كيف حمل كتكوتاً على راحة يده أمام أنظار الناس وراح يتوقده بغضب:

- سأكلك ؛ إذا لم تخبرني أين أمك!

كانت غالبية أهل القرية قد هجرت القرية ؛ إحتراراً من القصف المدفعي ، واتخذوا العرازيل والمغاور وشقوق الصخور الكبيرة ملاذات لهم. كان (أميد) من المناصرين للبيشمركه، وقد فقد كل ما يملك ؛ حيث نهبوه وكنسوا غرفته الوحيدة، وراح (آري) البيشمركه الفتى المرح يطيب خاطره:

- لنذهب ونبحث في المقرات يا كاكه أميد

- ولماذا البحث في المقرات؟ وبعد ماذا؟

- لا بد أن نذهب معاً! لعلك تتعرف على ممتلكاتك ، فلاشيء يضيع لدى البيشمرگه.

- لنفرض ..وجدتها ، فالجو بارد وليس سوى البيشمرگه يستحقون البطانيات، ثم انهم جائعون ويحتاجون إلى الطعام...ولكن لماذا هذا النهب؟! فقد شاهدت الغرفة بأمر عينيك...لقد كنسوها وكأنها كانت فارغة من أي شيء! أهذا سلوك بيشمرگه، أم...؟!

ومع ذلك ألح عليه آري ، واصطحبه إلى (سربست) بصفته شبه مسؤول منفذ ، وكنت حاضراً هناك:

كاكه سربست ! هذا كاكه أميد المعروف لجميعنا كصديق حميم لنا ...لقد حطموا باب غرفته وكنسوها كنساً...

- وما دخلي أنا ؟ كان المفروض ألا يتركها...

وحينها كان أميد قد نقل الخبز إلى البيشمرگه المتخذهين فوق قمة جبل.

- لا بأس يا كاكه سربست..دعه يبحث بين أمتعة وأغراض وأفرشة المقر - بيشمرگتي لم يأتوا بأي شيء.

وهنا تناول أميد طرف الحديث:

- لاسمح الله لم أقل أن بيشمرگتك لصوص..إذهب والى نظرة على غرفتي ، وتصور هل فعل حتى المغول بها مافعلوا!

فرغ سربست رأسه، حيث كان يلعب الكونكان (الورق) وانتفخت أوداجه:

- أ تسبب الثورة؟! إغرب عن وجهي..

- كلا، إنما هذه البطانية التي جنابك تجلس عليها شتيمة بحق الثورة، هذه الأوراق التي تلعب بها، هذا القلم الذي تسجل به (الطرقات)، هذا الكتاب الذي تسجل عليه (الطرقات) كلها مثلك تلوث اسم البيشمرگايي المقدس يا جناب الثور...ي!

عصفت ثورة غضب بكيان سربست ؛ فاحمر وجهه ، وانتفض واقفاً والأوراق بيده:

- أقول لك إذهب في سبيلك؛ وإلا سأقبض على روحك أو تردينني شهيداً!

ليلة قمرء خلابة، أنسام غليلة ، تفوح رائحة خريفية أسرة وثمة غيمات متفرقة تحجب ضياء القمر هنا وهناك مثل الرقع في ملابس الفقراء. تمنع مستو في ساعته على ضوء القمر، وخاطب نفسه: " بقيت لي ساعة ونصف من الخفارة ، ولكن لن أوقظ (سامان) سأواصل الخفارة ؛ فهو منهك من سفره، ثم أتمتع بهذه الليلة البديعة.."

كان مستو متكباً بتدقيته وهو يمشى رانحاً غادياً أمام المسجد . وكان النسيم يرقص أشجار القوغ في الطرف المقابل بين الفينة والفينة، وكانت الأوراق المتساقطة توشوش حوالها، ثم تستكين ويركن معها كل شيء إلى السكون. وفجأة رَج عواء منيد بعيد هداة الصنمت ؛ فتوجس مستو خشية الشؤم : " عواء الكلاب نذير شؤم ونحس، ولقد جرت العادة عندنا أن يلقبوا الحذاء عند سماعه ، ولا أفقه معنى ذلك! إنما يزعمون بأنه يبعد السوء عنهم! يا لها من من عادات عجيبة وغريبة شائعة عندنا ، ومنها انهم حين يجلبون جرواً ليحرس المنزل أو قطع الغنم حين يكبر، فهم يقطعون أذنيه وقسماً من ذيله، ويطعمونه إياه زاعمين بأنه سيصير كلباً بقطاً وشرساً! بل ويمارسون ما يشبه ذلك مع الصبيبة والفتيان ؛ فهم يعطون أحدهم قنبلة يدوية : اذهب واقتل فلاناً ...أو فجرها في المكان الفلاني...ولاتنس أن تعيد حلقتها وإلا لن نصدقك " وهكذا صارت (الحلقة) محكا للتصديق!

" سحقاً لك يا (محمود) يا لقيط يا ابن الزنا! أية زنازل نشرت ! كم إنساناً لوثت! كم شخصاً دفعت إلى مستنقع الجريمة وكم طاهراً لطخت سمعته؟!"

و محمود هذا رجل ذو قامة فارعة وبشرة حمراء وعينين زرقاوين شبيهتين بلوزتين ، ولم أزل حتى اليوم أتذكر بعض كلامه: " إن مصلحة الحزب فوق كل شيء. يجب على كل مخلص أن يذعن كلياً لقرارات الحزب. فنحن نقتل حتى أعضاءنا؛ في سبيل الحفاظ على وحدة صفوف الحزب . هذا ما يتطلبه التنظيم الحديدي. أجل ؛ نقتله ، ثم نذرف عليه الدمع الهتون أمام أنظار الناس..."!

تَبَا لَكَ يَا ابْنَ الْحَرَامِ ! فَقَدْ جَعَلْتَ مِنْ ذَلِكَ الْهَرَاءِ هَرَاوَةً تَهْوِي بِهَا عَلَى رَأْسٍ مِنْ تَشَاءِ التَّخْلُصِ مِنْهُ ، حَيْثُ كُنْتَ تَتَفَرَّسُ حَوَالِيكَ ؛ لِتَحْدَدَ ضَحَايَاكَ وَاحِدًا فَوَاحِدًا ، ثُمَّ تَجْلِبُ أَحَدَ السِّدَجِ وَ " تَقْطَعُ أُذُنِيهِ " وَتَلْقَنَهُ : " إِسْتَبْدِلْ هَذِهِ الْبِنْدَقِيَّةَ ، إِذْهَبْ وَقُلْ : يَقُولُ كَاكَهَ مُحَمَّدٌ : عِنْدَنَا بِنْدَقِيَّةٌ حَدِيدِيَّةٌ الْأَخْمَسُ ، أَعْطُونِي إِيَّاهَا . إِنَّهَا هَدِيَّتِي لَكَ... " ثُمَّ تَرَبَّتْ عَلَى كَتْفِهِ ، وَتَسْتَبِيرُهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ :

- لَقَدْ أَفْشَى أَسْرَارَ الْحِزْبِ !

- أَطْلُقِ الشَّتَاتِمَ... !

- لَهُ اتِّصَالَاتٌ مَعَ أَجْهَزَةِ الْحُكُومَةِ !

- إِنَّهُ خَطَرٌ كَبِيرٌ !

- إِنَّهُ مَفْرُوقٌ مَثِيرٌ لِلْفَتَنِ !

- إِنَّهُ يَرْوِّجُ أَفْكَارًا سَامِيَّةً !

مَرَحَى لَكَ وَلَدِهَانِكَ الْخَبِيثِ يَا كَاكَهَ مُحَمَّدُ ! مَاذَا تَحْسِبُ النَّاسَ ؟ هَلْ أَلْقَيْتَ نَظْرَةً عَلَى مَا حَوْلِكَ ؟ ! أَتَعْلَمُ مِنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَمَعْتَهُمْ حَوْلَكَ ؟ ! إِنَّهُمْ شَبَابٌ سِدَجٌ أَغْرَارٌ أَوْ أَحْسَاءٌ مِنْ مَعْدِنِكَ الرَّدِيِّ لَيْسَ لَهُمْ أَيْ وَزَنٌ إِجْتِمَاعِيٌّ ! سَحَقًا لَكَ وَلَدِهَانِكَ ؛ فَهَؤُلَاءِ وَلَيْسَ غَيْرُهُمْ يَلَانُمُونَ لُؤْمَكَ ، مَا دَامُوا يَسْعَوْنَ إِلَى تَحْقِيقِ مَارَبِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَسْنَانِهِمْ وَأَيَّةَ وَسِيلَةٍ... إِنَّهُمْ كَالْقِطَارِ السَّرِيعِ ! فَحِينَ يَعْجِزُ الْمَرْءُ عَنْ تَكْوِينِ نَفْسِهِ ؛ فَهُوَ يَبْحَثُ عَنْ أَيْ مَنَفَذٍ وَيَفْتَشُ عَنْ أَيْ مَسْرَبٍ وَبِأَيَّةِ وَسِيلَةٍ : الإِسْتِغْلَالُ ، الإِضْطِهَادُ ، الإِجْرَامُ ... لَا يَهْمُ... مَا دَامَتْ نِزَوَاتُهُمْ تَمُحِقُ كُلَّ الْقِيمِ وَتُشَلُّ ضَمَانُهُمْ وَتُلْجَمُ أَلْسِنَتُهُمْ وَتَقْتُلُ نُورَ الْحَقِيقَةِ فِي أَعْمَاقِهِمْ ، وَإِذَا مَا وَنَدْتَ الْحَقِيقَةَ أَوْ مَاتَتْ ؛ فَسَيَكُونُ كُلُّ فِعْلٍ مَبَاحًا... وَلَكِنْ يَا مُحَمَّدُ تَيَقَّنْ أَنَّ هَذَا الْوَضْعَ لَنْ يَدُومَ طَوِيلًا ؛ مَهْمَا لَوُثَّتْ مِنْ عُقُولٍ وَضَمَانٍ ، بَلْ إِنَّكَ تَحْفَرُ قَبْرَكَ بِنَفْسِكَ... فَأَنْتَ بَرَجَوَازِي الطَّبْعِ وَالْفِكْرِ وَالسَّلُوكِ ، وَالْبَرَجَوَازِيُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقْطَعُوا فِي مَسِيرَاتِ تَارِيخِ شُعُوبِهِمْ سِوَى شَوْطٍ أَوْ شَوَاطِينٍ ، ثُمَّ يَنْحَرِفُونَ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ بِسُرْعَةِ (١٢٠ كَم) فِي اللَّوْفَةِ : " بَايَ بَايَ... " ! فَمَاذَا فِي تَعْكِيرِ الْمِيَاهِ ؛ لَتَبْدُو عَمِيقَةً أَمَامَ أَنْظَارِ النَّاسِ !

لقد باتت روحي ساهدة مؤرقة هذه الليلة يا محمود أفندي... لقد عصفت صورتك القبيحة بطمأنينتي وأقلقت راحتي ؛ فقررت ألا أوقظ أحدا من رفاقي ، وأن أحل محل جميعهم في نوبات الحراسة... إن روحي ساهدة وأذني تطنان وخيالي يتشبث بي... فحينما زارني أبي كان يرمق بندقيتي بحنو وأسى ، وبدأ لي متحسرا على أيام شبابه الخوالي: " لاتغتم يا بني على عدم إكمال دراستك الجامعية ؛ فالمجتمع جامعة، وفي الثورة أبلغ الدروس..." إن روحي المؤرقة تأخذ بخناق يا محمود ، وعمر ابنتامتك المداينة وبشاشتك الخداعة قصير... فمهما أحكمت وضع قناعك وتشبثت باعتقادك بأنه يديم جبروتك ؛ فأنت واهم ، مادام ثمة من يرون وجه الشرطي الكامن وراءه! ولبتك سمعت ما قصته أبي علي :

" ذات ليلة قريبة، كنت عائدا من محلي . كان الظلام دامسا، وكان المطر يهطل بغزارة، وكانت شأيبه تنهمر كالخيوط الملتهبة على مصابيح الأعمدة الكهربائية. وذهب ريح باردة .. وإذا بي ألمح شبحا على مبعده مني تحركه الريح وتدفعه دفعا وتقدم مقتربا مني . كان الماء ينساب عليه ويرتفع مثل ريشة في مهب الريح ، ففرست فيه ؛ وإذا بي أرى الخالة (ميرم) جارتنا.. أم سيابند أما تتذكرها..؟! إقتربت مني على مهل وامسكت بحزامي واستنشقت شهقة عميقة وتأتأت بشفتيها المرتجفتين: ولدي صادق.. أنتم آل دوغري (*) المعروفون وأنت رجل شهم تقول الحقيقة وتفعل الحق ؛ ولو على حساب قطع رقبتك.. أجيبي بصديق ؛ إن سألتك سؤالا؟ فأجبته: طبعاً فليس عندي سوى الصدق يا خالة ميرم وأنت مفخرتنا، فتفضلي و مريني ، فسألتنني : لاشك في أنك تعرف سيابند؟ فتساءلت: أي سيابند؟ فتجهم وجهها، وبدأ لي الوقع السيء لتساولي ، والله وحده العالم كم شتمتني في سرها! : سيابند ..سيابند إبنني ..سيابند الذي مات في عز شبابه؟!

- أجل ..أجل وكيف لا أعرفه؟!

- هل كان سيابند خائنا لثورة كردستان؟!

- كلا...ولماذا هذا السؤال؟!

- لاشيء.. هذا كل شئت أن أعرفه ، مع السلامة يا ولدي ...حالفك الخير .
واستسلمت لمهب الريح ، وراحبت تغمغم وتهمهم كالملائكة عقلياً ومضت في حال
سبيلها وغابت في الزقاق المظلم...وأنت يا مستو هل تعرف شيئاً عن سيابند؟!
فحجبت وجهي بيديّ واعتصرت جيبني قليلاً ، وهززت رأسي يمنة ويسرة .
وتناهى إليّ عواء الكلب من جديد " هذا الكلب اللعين يثير الريبة!" وسارعت
بقلب حذاء أحد البيشمرگه ، فغمزني بعض الراحاة ، رغم عدم إيماني بذلك!
رحت طقطقة ما هدوء الليل ، وهجبت كوا من غربته ، وراح الخيال المجنح
يطوف بي مدارس مدينتي البعيدة ، وأغمضت عيني ، وفتحتهما ؛ فسرت بين
جوانحي رعشة باردة...وأنا أتذكر معلمة مكتنرة الجسم ، سمراء ، خضراء
العينين ، ينسدل شعرها الطويل على كتفيها وعنقها ، ورخيمة الصوت :

- قم يا بني

- أ..نا...ست؟!

- أجل أنت ما اسمك؟

- رنج سيابند

- حسناً ماذا يشتغل أبوك؟

وإذا بوجه الصبي يكفهز ، وينكس رأسه ، وتغرورق عيناه بالدموع ، وتخنقه
العبرة . ويلتفت إليه زملاؤه..ويهتف أحدهم بنزق :

- ست ست أبوه قُتل ، كان خائناً!

لو جاء أبي لزيارتي مرة أخرى؛ سأقول له : قل لها يا أبي قل للخالة مريم : كلا
، لم يكن سيابند خائناً، كلا ، بل كان بيشمرگه تضطرم الثورة بين جوانحه.كان
مخلصاً..قل للخالة مريم أن تتفخر به كل الإفتخار ؛ فقد إستشهد سيابند من أجل
الحق والحقيقة"

" البيشمرگايتي محبة خالصة بلارياه"

فيا أبي أفهموا رنج بأنه ليس ابن خائن ، وإنما ابن شهيد عظيم.

- مستو

إنقضت من سياحتي الخيالية

- نعم يا عزيزي هلكوت

- لماذا لم ترقظني؟ فقد فانت نوبتي في الخفارة!

- لا عليك يا عزيزي .. اذهب واصل نومك ، أما أنا فلا أشعر بحاجة إلى النوم ، فحتي لو آويت إلى الفراش ، لن يراودني النوم؛ فاذهب و نم ... طابت ليلتك .
أذناي تطنان طنيناً غريباً ؛ فأسدّهما بسبّابتي بصورة لاشعورية ، وأردّد مع نفسي : " الموت على بالي.. الموت على بالي.. الموت على بالي.. " فقد علمونا في الطفولة أن نفعل هكذا؛ كلما طنّت أذاننا، وكان يحدث أحياناً أن يسدّ الواحد منا أذنيه في بحبوحة اللعب في زقاقنا، ويصيح : " الموت على بالي.. الموت على بالي.. الموت على بالي.. "

لقد إستفاقت روحي وتأرّقت ، وعصف القلق بهدوني ، وها هي الذكريات تتزاحم على شاشة ذاكرتي ومخيلتي ؛ فيها هو وجه هلكوت المرتبك وصوته الهاديء يغزوان ذهني ومسمعي:

- لقد حذرت مراراً ولكن سدى: حذار حذار يا سيابند؛ لقد نصبوا لك شركاً .. سيؤذونك ... سيقضون عليك ... سيقتلونك شرّ قتلة !
فكان يعلّق على كلامي ضاحكاً:

- أقصى ما في الأمر انهم سيقتلونني ... أ تعرف يا كاكه هلكوت بأن الإنسان حقيقة مقتسة ومعقدة يختبرها ويمتحنها الفعل، أمّا الموت فيصدر بحقها الحكم الأخير؟!

- تعقل يا سيابند فأنت لاتعرفهم حق المعرفة بعد ؛ فالحلّ والربط بأيديهم ...
- لاتهتم يا عزيزي هلكوت فكاكه محمود صديق قديم ؛ فهل يبلغ جوده ولؤمه إلى هذا الحد؟!

- أعلم يا سيابند أن (كاكه محمود) ك هذا محترف سياسة، ومن يحترف السياسة؛ لا يكون صديقاً لأحد ؛ فهو ليس صديقاً إلا لمصلحته ..!
- لكنني مطلع على الكثير من أسرارهم؛ وهو لم يوطد وضعه بعد ..
- لوجه الله أنصحك فأقول لك جازماً بأن هذا السبب وحده كاف لموتك يا سيابند!

- ومع ذلك لانتهم يا كاكه هلكوت ؛ لاضير في ذلك فالمشاركة في الثورة ليست بخيانة، و الموت محك لكشف حقيقة الإنسان...
 - لكن موتك هذا لن يكون الموت الذي تبتغيه .
 - طبعاً سينكتمون عليه، سيشوهونه وسيثيرون الشبهات حوله أليس كذلك؟!
 ليفعلوا مايشاؤون ؛ فليس في مقدورهم تمرير ذلك سوى فترة وليس إلى الأبد ..فلكل حقيقة شمسها الكامنة في باطنها، ولا بد من أن يأتي يوم بزوغها وتلقي الأضواء عليها.

- مستو...!
 إنتفضت والتفتت فإذا به (حسو):
 - اذهب و نم فأنت مرهق جداً
 فذهبت ، حيث اندسست في (كيس النوم) وتكورت....ثم صحت صباحاً على زقزقة العصافير على أغصان شجرة التوت التي تتوسط صحن المسجد.
 وتأملت جذعها الضخم المحفور عليه المزيد من الأسماء والتواريخ ...
 ثم تجمنا و توزعنا على البيوت ، وكنت أشعر أن جسمي قد خف قليلاً ، لكنني كنت مصدوعاً و دانخاً إلى حد ما.

(٦)

نادراً ما كان محمود يظهر بين الناس ، ولم يكن يختلط بهم كثيراً، وحتى لو اختلط ؛ فكان قليل الكلام ؛ فاكسب بهذا الأسلوب هبة ما كانت تحيط به شلة من الشبان الأغرار بعضهم سذج وبعضهم مراؤون أخساء شأنهم شأن الظل طالما يرددون كالببغاوات تعاليم (الرفيق محمود) وينسبون إليه ما لا يخطر على البال من مناقب؛ بحيث يرفعونه إلى علياء الثريا! حتى بلغ الأمر حداً لو صاح محمود نفسه : " لست مثلما تتصورونني وتصورونني" لما كان يصدقه أحد! أجل...كان هناك (رفيق محمود) الأوحد الذي من المحال أن يوجد صنوه...لقد كان هبة من الله إلينا!

- لقد كانوا مخلصين مضحين للکرد وكردستان أباً عن جد
 - كان أبوه ببشمر كنه صنديداً في ثورة الشيخ محمود؛ فسماه (محمود) تيمناً به!
 - فعلاً إن أسرتهم (موقوفة) على الكرد وكردستان..
 كان محمود يسكن غرفة صغيرة منعزلة نوعاً... حيث يكون في الوضع
 الأفضل المحبب له؛ فقد كان كثير المطالعة، فهو يقرأ الفأل؛ للتعنبو بمصير
 الشعب الكردي! كان لغرفته بابان، الأيسر مغلق دائماً، لا يدخل ولا يخرج منه
 سواه و الرفيقة (بروانه)! ولها نافذة مطلة على الغرب، وعلى أعلى الجدار
 المقابل للباب صور (ماركس)، (أنجلز) و(لينين) معلقة وتحتها صورة
 (ماوتسي تونغ)؛ إكراماً لخاطر نوي الشأن! وها هو الآن يذرع الغرفة جينة
 وذهاباً، ويحدث نفسه: "حسناً لقد أحرزت الكثير من النجاح حتى الآن يا
 محمود.. أما المطلوب فليس سوى ترسيخ الخوف في قلوبهم؛ لكي تمسك بزمام
 المبادرة وتوجه الدفة كيفما ترغب وتشاء؛ وعندها سيذعنون لك وينصاعون
 لأوامرك تماماً مثلما يتخاذل الحمل حين يقع نظره على الذئب وينهار أمام
 مشيته؛ فإياك أن تغض الطرف عن أحدهم! سيأكلونك؛ لو فتحت عيونهم على
 الحقائق، وإذا انفتحت عقدة السنتهم؛ سيفضحون خفاياك. إنتبه جيداً لهؤلاء
 السفلة الذين يتحلقونك! عليك أن تطعمهم جيداً؛ لكي يزدادوا شراسة؛
 فلا يجرؤ أحد أن يتفوه أيضاً بكلمة أمامهم.. لقنهم كلمات وعبارات وجملًا بليغة،
 وعلمهم كيف يلفقون الأكاذيب المهيولة دون أن يجرؤ أحد على أن يسعل أمامهم
 ويكذبهم! ومع ذلك لا ترخ العنان لهم كثيراً! وإذا ما شئت الإستخفاف بأمريء
 ما وإثارة حقنه؛ فزم شفتيك ثم فرجهما قليلاً، وتظاهر بجهلك له حتى لو كان
 من أقرب المقرّبين لك وتعرف آباءه وأجداده! أجل؛ تظاهر بالشروء وانشغال
 عقلك وانصباب تفكيرك على مصير الأمة وتساءل: (أه! نسيت إسمك،
 ماهو؟! هه... إنتبه لهذا الدبوث (دليلر) أخ القعبه؛ فهو يكاد أن ينسى منبته
 الوضيع... روعه؛ بحيث لن يجرؤ مرة أخرى على رفع عينيه أمامك.. أجل؛
 فلتأت.. فلتأت أخته (القعبه).. لماذا لم تأت لحد الآن؟ ليس من المستبعد أن
 تكون الآن منطرحة تحت فحل آخر في ظل شجرة! يجب أن تلجمها لجماً،

ولكن ذلك لا يجدي مع أمثالها... هذه اللعينة لاتخمد شهوتها؛ بل تقطع السبيل على أيّ ديك عابر.. وتستسلم كالدجاجة لكلّ من هبّ و دبّ ولا تحرم أحداً من خيراتها ! إذن يجب أن تلجمها وتكلفها ببعض الأعمال الصغيرة ، وارخ العنان لها أحياناً ، وليتعرّض لها من يحسب نفسه رجلاً ! لعلّ من حسن الحظ أن الناس بمستوى من البلاهة ؛ بحيث أن معيار احترامهم لأيّ شخص يتشكّل من مستوى علاقته بهذا المسؤول أو ذاك"

و ها هو محمود الفارح الطول الذي يكاد أن يمس رأسه سقف غرفته واقف يتطلّع من النافذة ، ويبدو متعباً ، وقد إجمرت بشرته أكثر ، وتجهّمت سحنته :
- لماذا لم تحضر بروانه لحد الآن يا نلير ؟

- فديتك روي .. إذا لم تأت بعد قليل ؛ سأذهب بنفسي للبحث عنها ..
ثم يستلقي محمود على سريره ويرنو متأملاً السقف : " لا أعرف..."

وفجأة يسمع طرقات خفيفة على الباب ، فيفتحه ، فإذا بها بروانه ، وما أدراك ما بروانه؟! عروس في ليلة زفافها، يتراقص رنفاها مثل نابضين عند المشي ، وعيناها المتصيديتان تشعان سحراً وتخدّران الرائي ، ويظهر نهداها من فتحة صدرها كحمامتين قرعتين ... وعندها يمسك محمود معصمها بقوة ويجتذبها نحو السرير ، لكنها تتصنّع العفة وتبدي التمتع لسوء حظ محمود رغم سرعة استجابتها المعهودة:

- آآه لا لا لا لا..كن

يطوق محمود عنقها بذراعيه ، ويجتذبها إلى السرير ، وهي تحاول التملص منه ، ولا تريد الإستسلام بسرعة؛ لأنها تعلم جيّداً أن سحر المرأة الطاغية يكمن في غنجها، فإن نسيت ذلك ؛ سيبتل سحرها

- كيف حالك يا نلير العزيز ؟ هذه الرسالة من (سلام) فالرجاء إيصالها إلى كاكه محمود ..

يتردّد نلير في الإجابة وكأنه قد شمّ رائحة ما :

- لكن..

- الجواب السريع عليها ضروري جدا ، سابقى هنا منتظرا...
يمضي دليبر نحو الغرفة مترددا ويدخلها فيتفاجأ!
- المعثرة...

وينسحب مسرعا ويتسمر في مكانه وقد إكفهر وجهه :
- عزيزي آزاد ..كأكه محمود مشغول الآن ، فانصرف الآن ، وسأوافيك بجوابه
لاحقا

وعندها ينصرف آزاد
ويتناول دليبر إبريق ماء ويسرع إلى المراض...!

(٧)

هاهنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسة لمعرفة
الوقت صباحا، ظهرا و مساء...

كان بين (الخال عزيز) و(خليفه خدر) جفوة قديمة متأصلة، و طالما كان
الصبية النزقون يشاكسون الخال عزيز ويزعجونه بال عبارات الإستفزازية :
- إختلط عليك الوقت يا خال عزيز! وقد فات موعد الصلاة...!
- ألم يكن موعد الصلاة يا خال عزيز؟!

وعندها كان يرفع رأسه ويفتح عينيه الصغيرتين تحت حاجبيه الكثين الأبيضين
متطلعا إلى أعلى أغصان شجرة التوت:

- ليس بعد يا خال...؛ فحين يبلغ الظل أعلى غصن من الشجرة؛ يحين موعد
صلاة الظهر.

- لكن خليفه خدر قال أن موعد الصلاة قد فات ، وقد إختلط الأمر على الخال
عزيز!

وعندها كان ينهض بصعوبة ، ويخطو بضع خطوات مستندا إلى عكازته ، ثم
يعتدل في وقفته، ويستنشق الهواء:

- هراء ما قاله خليفة خدر، إنها أسطوانة جديدة؛ فمنذ أن وعيت وأنا اضبط لهذه القرية حسابات الأوقات والسنوات والنجوم وأيام رمضان وأوقات السحور والإفطار والأعياد وأربعينيتي الشتاء والصيف؛ فلماذا لم يختلط علي الأمر ولو مرة واحدة؟! تباً لخليفة خدر! والله أعلم حتى متى تحيض زوجته! سحقاً لخليفة خدر! فقد تمادى في استغفالكم بأحاديثه السمجة! إير الزمال في (..أمه) وفي دبر شيخه المبارك!

الشمس تنحدر نحو الغروب، وخليفة خدر واقف على شرفة بيته وعينه تتطلعان صوب الأفق البعيد، وهو يستبح بمسبحته ذات المائة حبة وحبة، وتختلج شفاته، ويزداد اضطراباً؛ كلما انحدر قرص الشمس أكثر:

- لأدري لماذا إنقطعت أخبارهم؟! اللهم اجعل الخاتمة خيراً.. فقد آن وأوان العودة ولكن قافلتنا لم تعد بعد؛ فهل إختلط الحساب علي؟! ليته قد إختلط علي؛ لعلمي أنخلص من هذه الهواجس والوساوس... فالتناس قد أغلقوا أبوابهم على أنفسهم، وانصرف كل واحد منهم إلى شأنه.. فذاك ميرزا الذي إندس طوال العام هذا في غرفته ولم يبرحها، وهو يلزم صبا طوال ساعات الليل والنهار مثل كلب! فلحجيء يا ميرزا مرة واحدة يومياً لتختلط بالرجال، لبارك الله فيك يا من يحسبونك فهيمًا حكيمًا! فليحل الخراب بهذه الدنيا التي فيها هكذا حكماء! معلوم؛ فقد كان منذ البداية غير راض عن القافلة، ولم يكثرث بأمرها. أولم أجازف بإراقة ماء وجهي قاصداً بيته قبل بضعة أيام، وبرهاني هو وجود أحد البيشمرکه ضيفاً عنده؟! ألا حل الخراب بدارك! قسماً بالقرآن لو كنت أدري بحقيقة موقفه؛ لما قصدته أبداً، فكأنه قد يبدأ فترة المراهقة لتوه ويلتصق بـ (صبا)ه ألا نلت الخسران في حضرة الله تعالى جزاء إحراجك لي أمام ذلك البيشمرکه؛ كما لو أنني نطقت كفرًا بسؤالي:

- ميرزا أعتقد أن قافلتنا لهذه السنة ستعود بالسلامة؟

- ومن يقود القافلة؟

- شيخه ابن حاجي شيخ

- ها... إنه رجلك المصطفى ! قسماً بالله يا خليفه تأكد بأن قافلة يقودها جاهل
أخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا
في هوة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطنت الأرض أمامها !

ألا خجلك الله يا جناب ميرزا كما خجلتني أمام ذلك الضيف ، وحلّ عليك
غضب الله ؛ مادمت لا تنطق بكلمة طيبة واحدة ، لأأري لماذا تنفوه دوماً
بالسوء ؟ ألم تسمع ما تفضل به سيّد الكائنات فداه آباي وأجدادي : " الكلمة
الطيبة صدقة ؟ " كلا .. إنه يعرف ذلك ، لكنه لم يقل ذلك إلا نكايه بي.. أجل ؛
فهو يدري بأنني أول من ارتأى أن يكون (شيخه) على رأس القافلة ، ولذا
لا ينطق لسانه بكلمة طيبة ! تبا لك يا ميرزا الثعلب ! لو إكتفى بذلك ؛ لهان الأمر ؛
فأنا متأكد بأنه سيتشذّق بالكلام نفسه لكلّ من يقصده : " لا تركنوا إليه ؛ فليس
سوى الله يعلم بما يديره في الخفاء ! فهو لا يتهج إلا إذا رآكم أذلاء مكروبيين !
فابتعدوا عنه أثابكم الله خير ثواب ... سيحفر لكم حفرة ، ثم سيتفرّج عليكم حين
تسقطون فيها ! إنه لا يرزح تحت حمل ما ، ومتى ما داهمتنا بلوى ؛ سينجو بجلده
لانذا بشيخه المبارك .. أما أنتم فإلى جهنم وبئس المصير ! "

رفع خليفه رأسه وتطلع إلى مغيب الشمس واستنشق الهواء ملء رئتيه :
" أنظر ! أنظر ! إلى السماء كيف تمطر غضباً ، الغضب والدم يحجبان السماء ،
وكيف لا ؛ وقد تغرّر الناس ، وانصرفوا عن الله تعالى ؟ ! فإذا استمر هذا الوضع
؛ فليست القافلة وحدها لن تعود ، بل ستطبق السماء على الأرض ... أجل
ستطبقان على بعضهما البعض ، وستحق العواصف والأعاصير كل ماملكت
أيدينا وما لم تملك محقاً مبيناً ، ستحمل حقولنا وتشرّد نساؤنا وأطفالنا وتفنى
البلاد ... سينزل علينا الله غضبه الهذّار ... والله وبالله و تالله سينزله بنا وأكثر ؛
وكيف لا ينزله ؛ مادام ابن الديوث الخال عزيز الخال خراء يهرق : " سحقاً
لخليفه خدر ! فقد تمادى في استغفالكم بأحاديثه الخداعة ؛ لا تسلموه لحاكم ؛
سيحلّقها ويعطي بأيديكم المرايا لتتفرّجوا عليها . وإذا ما وقعت الواقعة ينجو
بنفسه ويتفرّج من العلالي عليكم ، حيث يلوذ بشيخه ، أما أنتم فداعبوا خصيتيّ
كديشه ! "

ثم رفع رأسه ونظر إلى المغيّب ، وشهق شهقة عميقة : أنظر إلى السماء تمطر غضباً ، أنظر كيف يحجب الدم والغضب وجه السماء ! لقد تغيّر الناس ! ابتعدوا عن الله . فإذا استمرّ الحال هكذا ؛ سوف لن تضيع القافلة فقط ، بل ستنقلب الدنيا ويصير عاليها سافلها وسافلها عاليها ، وسيمطر الحجر ، وتعصف الأعاصير بديارنا ، وتعرض للإبادة ، وتضرب الآفات حقولنا وبساتيننا ، وستتشرّد نساؤنا وأطفالنا للعثور على لقمة خبز... أجل ؛ كيف لا يغضب علينا نور العيون و مالك الكون ؛ إذا تمادى ذلك الديوث الخال عزو الخال خراء في في تجاوزاته : " سحقاً لخليفه خدر ! فقد تمادى في استغفالكم بأحاديثه الخداعة ! إبر الزمال في فرج أمّه و دبر شيخه المبارك " ستحلّ علينا اللعنة وكيف لاحتلّ ؟ ! إلهي إقبل توبتي ، ولا تحسب كلامه كلامي... التوبة التوبة... ولا تضيع أجري " وأخذ نفساً عميقاً : " يا حق... " ثم هبط درجات السلم وهو يحجل ومضى إلى المسجد ، حيث تواضاً وانهمك في الصلاة ، وكان دأبه أن يبتهل بعد كلّ صلاة ويتضرّع متطلعاً إلى السماء ، باسطاً يديه : " يا هوو يا خالق يا جبار يا هوو ... أغثني .. لاتخذلني في عيون الحثالات الغوغاء.. وأنت يا شيخي المبارك يا شاه النقشبند إشفع لي ولا تخزني ... فقد نذرت خروفاً سأنحره عند عودة القافلة سالمة هذه المرة ، وعهداً ألا أدنق نفقة لحم منه ! يا هوو مدد... يا هوو يا مغيث المساكين ... يا حامي المستضعفين .. يا خالق الأكوان والليل والنهار ... إني الكلب القابع أمام باب تكية الشيخ المبارك ألوذ بك يا رب العالمين... أولمّ تتفضل يا نور السموات والأرض بالقول " دعوني ؛ أستجب... " ؟

كانت الدموع الغزيرة تنهمر من عينيه وتجري في ثنايا لحيته البلقاء .. كان يتمتم ويغمغم ويتلفت يمنة ويسرة ، وينفخ و يطلق زفراته الحرّى حواليه... وبعدها أعاد ترتيب هندامه ومضى مشوّش البال قاصداً بيته : " أرى من الحكمة أن أقصد الديوث عزيز العجل ! لا لا... من الأفضل أن أرسل (زيني) إليه : قومي يا حرمة واذهي إلى الخال عزيز واسأليه ما رأيه.. وما قوله ؛ فالناس يقصدونه من كلّ فجّ عميق ، وهو سيكتهنّ بمصير القافلة حتى لو غارت في أعماق الأرض !

إنها حكمتك يا رب! تهب الحكمة والكرامات لمن لو قايضته بجمار ؛ لخسرت البردعة! غفرانك يا إلهي يا غفار الذنوب يا من تغفر ألف ذنب بتوبة واحدة! أنت العارف بكموا من الصدور ، لكنني أشهد بأن عيني الآن ماسيقول هذا الزنديق: " يا زيني أنت أختي ..أنت أمي ، أضع حذاءك على رأسي ، ولكن لا تدخل لي بذاك العريض اللحية المكسور القرن حتى لو كنت زوجته! فالزيجة قسمتك ونصيبك ! ولا يمكن فعل شيء حيال نصيبك ! لكنك امرأة مصون تفيض خيرات ذاك المبتذل من يدك ، بل لولاك ؛ لسحلت الكلاب ذاك الكذاب الأر عن ! إنك تعرفين مدى اعتزازي بك ..قسماً بالله الواحد الأحد لولا اعتزازي بك لما فتحت فمي ، ولكن لا بأس أن تفتديه هذه المرة أيضاً ، جعله الله فداءً للتراب الذي تطوه قدماك..فاذهبي يا أختاه اذهبي واخبريه أن قسماً من القافلة قد انفصل عنها ، والقسم الأكبر منها لايجد سبيلاً للخروج من (جبل الصد ما رد) ولن ينجو منهم أحد ؛ حتى لو إمتلك سبع أرواح!" ثم يهز الخال عزيز يده ، ويعبس ، ويأخذ نشقات سريعة من سيگارته وهو يلهث: " أسرع في الذهاب وقولي له: لاجدوى لذهابهم للبحث عن القافلة ، ومع ذلك فليذهبوا درءً للوم الناس ...أواه من وجع ظهري! وقولي له ...إذهبي بسرعة وقولي إن (فرج) قد انفصل أيضاً وضلّ الدرب ولن يهتدي إلا بعد وقت طويل...ولا تنسي أن تقولي له لينهمك في الصلاة وليتضرّع إلى الله وليبك كالنساء ! ولكن هل سيسمّجيب الله لدعاء هكذا ضراط...؟! "

" من الأفضل أن أقصد جمال... " :

- ولدي العزيز جمال..إنكم رجال كرام ونبلاء ، وعرفتم بالمروءة والشهامة أباً عن جد...إن قافلتنا قد تأخرت في العودة يا ولدي...والله وحده يعلم أية بلوى أحقت بها !

وهنا يتشجج صوته:

- يا لهول الخراب! سينصب علينا لوم الناس لامحالة، سنفقد ماء وجهنا، ولا نجرؤ على رفع رؤوسنا أمام الناس! سينيغي علينا أن ننكس رؤوسنا في هذه

المنطقة ونتلقى تهكمات وسخرية الناس... في هذه المنطقة ! فقط؟ لا طبعاً؛ حيث سيبلغ الصدى أقصى البلدان السبعة ، حيث سيقولون: " يا لهم من مفقاعسين ودينيين وأخسءاء؛ بحيث لم يهبوا لنجدة قافلتهم!" وبعدها لا تبتلعنا الأرض ولا تختطفنا السماء! أجل؛ سنصير عبرة للعالمين...فانهض يا ولدي يا من أحسبك الرجل الوحيد في هذا....ويمت وجهي إليك بلحيتي البيضاء، إذهب إلى علي حاجي وعبدالله مصطفى وكاكه ولا وجوامير وازور والشبان الآخرين؛ ليجيء راكبا من لديه حصان وراجلا من لا دابة لديه، وانتظروني خارج القرية ، حيث سأتي بحصاني ..أكاد أنشق وأنفجر...هيا فديتك روحي...سألتحق بكم في الحال ، ولاتنس أيضاً يا ولدي أن تعرج على ميرزا إسماعيل ، وتستوضح رأيه..فهلم يا جمال..

علا النباح داخل القرية. كان وقع سنابك الخيل وحمحمتها وعويل النسوة المتجمهرات على الشرفات وأمام الأبواب يبث الخوف في القلوب:

- سيحل بنا الخراب...

- سنتشرد...أخزى الله من تسبب في ذلك...

- ويلاه من (جبل الصدا ما رد)!

- عمت عيوني عليك أينها القافلة التعيسة!

- أطين رأسي لحظك التعيس يا أخي شيخه!

- لقد انفصل فرج يا أختي ؛ فيا للدمار!

- هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه

تأخذني إلى جبل الموت ويلاه

تنقذ روحي وكل أحبتي ويلاه

- و لماذا كل هذا الصخب والضجيج؟! هل نفقت الأبقار وانقطع اللبن؟! ومتى

كان لنا نصيب في خيرات القافلة ؛ لكي نهتم هكذا بمصيرها؟!

دخل خليفه بيته باضطراب ، حيث استقبلته زبني:

- ويلتاه يا خليفه فقد قال الخال عزيز: "لاجدوى من ذهابهم لاجدوى ؛ فالقافلة عالقَة في (جبل الصّدّ ما ردّ) وليست هناك قوّة قادرة على إنقاذها"
فاجتاح الخور أوصال خليفه وغشي حزن غريب عينيه:
- لا، لا لاتقولني هذا يا حرمة هل أنت متأكّدة؟!
- أجلّ... والله.. فقد قال : " لقد انفصل فرج القافلة وضلّ الحرب أيضاً، ولا تأملوا رجوعه عمّا قريب...
- لا حول و لا..."

و راح يغمغم بصوت خفيض: " ومع ذلك ، لايجوز أن نتركهم هكذا..."
- هيا يا حرمة أسرجي حصاني ريثما أتي ببندقيتي ...
" لقد أبطلت كلّ ما غزلته يا عزّه المخبول!"
- " ... فالقافلة عالقَة في (جبل الصّدّ ما ردّ) وليست هناك قوّة قادرة على إنقاذها"

- حطّم الله فكّيك و شلّ لسانك ؛ كان المفروض أن تؤجل أكل هذا الخراء يا خال! لعلني كنت أجد فرصة للتفكير والتدبير ، و.....آخ منك يا زيني يا منقلبة اللسان! إلهي رحماك من وقوع كلام في شقّ امرأة! ليت رقبتي انكسرت ولم أرسلك إلى ذلك المجنون الهاذي...ولكن (جبل الصّدّ ما ردّ) قد يكون موجوداً ..ها إنه محقّ...خذوا الحكمة من أفواه المجانين أو الصبيان لافرق! دعنا من ذلك ، ولكن ماذا أفعل مع هؤلاء الناس السذج سريعيّ التصديق؟ فقد صدّق جميعهم في قرارة أنفسهم...و حالما سنصل قرب (جبل الموت) سيماطلون وبعودون أدراجهم...!

مرّ خليفه المعتلي حصانه كالسهم الخاطف أمام النسوة اللواتي كان نواجهنّ يقطع نياط القلب:

- هاتوا قافلة تحمل أحزاني ويلاه
تأخذني إلى جبل الموت ويلاه
تنقذ روحي وكلّ أحبتي ويلاه
و غادر خليفه القرية إلى حيث كان جمال وشباب القرية في انتظاره

- ولدي جمال هل أنتم مستعدون؟

- أجل ؛ فلنذهب يا خال خليفه؛ فالجو ينذر بسوء !

وشرع الجميع بالمسير واجمين يتقدمهم خليفه الذي كان يتوقف قليلا من حين لآخر؛ ليسترق السمع : "لاجدوى من ذهابهم لاجدوى ؛ فالقافلة عالقـة في (جبل الصـدّ مارذ) وليست هناك قوّة قادرة على إنقاذها"

- هنيئا لك تشمت بي يا عزه العجري!...الله كريم وكرامات شيخنا المبارك بينما كان يهز رأسه. كان الوقت متأخرا ، والجو ينذر بسقوط ثلج كثيف، وكان الجميع قد تخذرت أوصالهم و هم على ظهور الخيل، فمن الأفضل في هكذا جو أن يمشي المرء راجلا ، وفجأة هبت ريح ذات أزيز عابرة أغصان أشجار البلوط العارية وو...وو...وو...تذكر خليفه عويل ونواح النسوة المتفجعات:
- هاتوا قافلة نحمل أحزاني وبلاه

.....
فترجل عن حصانه:

- ويّ ويّ لهذا البرد القارس ويّ...

وراح يمشي راجلا، ثم توقف برهة:

- جمال وأنتم يا شباب ..لقد قطعنا شوطا طويلا، وقد تردى الجوّ جدّا ؛ فأخشى أن تغمرنا العاصفة الثلجيّة ، ونخسر السوارب أيضا إضافة إلى اللحى! لم يبق أمامنا الكثير لنصل كهف (مُغان) غير مسافة لا تزيد على مائتي خطوة ؛ أليس من الأفضل أن نحط الرحال هناك ، ونشعل النار ، ونستريح حتى الصباح المقبل و...؟

- إقتراح جيّد جدّا

مشى الجميع راجلين ، وكلّ واحد منهم مستغرق في هواجسه وتخيّلاته ...
- إلهي ! شيخي المبارك...لماذا فعلتما بي هذا؟! أواه! سيّشمت بي عزه العجري وميرزا ذو الرأس الكبير والغوغاء...أستغفر الله...و لا حول ..و لا...لا

" ولدي العزيز جمال.. إنكم رجال كرام ونبلاء ، وعرفتم بالمروءة والشهامة أبا
عن جد "

" آية قافلة ! فلتأكل رأس صاحبها ، كما أكلته! "

" شيخه؟! هيه أ يصلح مثله لقيادة قافلة؟! فلو كان رجلا كفوء ؛ لحق له
ذلك... ولكنه آخر زمان ...آخر زمان ! "

" وأنت يا فرج يا زين الرجال وا أسفاه! أرجو ألا يخذلني عهدي بك ؛ فترجع
إلينا... "

" ..ليست هناك قوة قادرة على إنقاذها "

" و الله لولا لومة اللامين ؛ لما حملتني قدماي ...! "

" خليفه اللامبارك ! هل تحسب هذا الأمر كالأدعية والصلوات؟! "

- غدا.. عصرا .. سنصل قدمايت (جبل الصّد ما ردّ)

- لم تعد حتى الآن آية قافلة من ذلك الجبل اللعين...تصوّر إسمه كم هو مروّع !

كان الظلام دامسا ، وكانت العاصفة الثلجية المزمجرة تفرع قلوب الرجال..

- آ...آ...ه وَي ساقِي وَي ..لقد خارت قواي ..حمدا لله فقد وصلنا..

- يا حيف يا خليفتنا لقد شخت !

- أجل ؛ يا بنيّ واه وَي وَي ساقِي ..؛ إنها الشيوخة وألف عيب!

حطّوا رحالهم ، وسارعوا بوضع التّبن والشّعير في الفرارات ، وعلّقوها

برقاب الجياد ، حيث ربط كل واحد جواده بشجرة ، وسارعوا بجمع كومة من

الأغصان والأعواد والقش ، وأشعلوا فيها النار أمام الكهف، وراحوا يمتدحون

النار:

- إنها نارنا الملتهبة لن نعطيها للبتت الغريبة

- النار فاكهة الشتاء والبرغل علف الرجال!

كان أحدهم أثناء المسير يصيح من حين لآخر:

- يا شيخه يا يا...

فكانت الجبال والوديان ترّد الصدى " يا..يا ..يا.. "

- يا قافلة...يا يا ...

- يا فرج يا يا...

كانت الأصوات والأصداء تتردد بين الجبال ، ثم تلاشى وتضيع...

كان الجميع منهكين ، دائخين و جائعين ، ويتبادلون النظرات المتسائلة ، ثم لا يلبث الواحد منهم أن يطأطيء رأسه كأنه يقول: " لاجدوى .زلاتبحث عن المفقودين!"

ثم هدأت العاصفة الثلجية، ولكن غيمات داكنة كانت تحجب الشمس أحيانا، وتلتصق ظللالها بالأرض كالرقع لفترة وجيزة...بينما كانوا يسلكون طريق العودة إلى القرية مهمومين مغتمين يحدهم خليفه البادي في غاية الإضطراب والإحباط: " لا، ينبغي ألا أعود إلى القرية في هذا الوضع ؛ سأغدو محط الإستهزاء والسخرية...يا لمصيبة انطلاق السنة الناس من عقالها؛ فهي تحيل المرء إلى خرقة قذرة ..وتلق له ألف فرية وفرية. يجب ألا أعود الآن ؛ فسيرمون على عاتقي مسؤولية كل ما حل بقريتنا في ماضيها وحاضرها...سيتصدى لي حتى الصبية الزعاطيط ويتعنتر علي كل من هب و دب...فأين أنت يا شيخي المبارك أنجدي..."

و لما وصلوا إلى الطريق المستقيم، توقف خليفه وعينه مغرورقتان بالدمع ، و شفاته ترتعشان. كان يعرف بأنه لو يفتح فمه ؛ سيفلت زمام نفسه ويجيش في البكاء. " تأكد يا خليفه ان قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!" و " .ثمادى في استغفالكم بأحاديثه السمجة! إير الزمال في كس أمه وفي دبر شيخي المبارك"

وفي تلك اللحظات ، تطلع إلى جمال والشباب بعينين غائمتين مثيرتين للشفقة ، وخاطبهم بصوت منكسر:

- أعزائي الشباب ...أنا...لا....أس.....تطيع العودة الآن إلى القرية ؛ إذ لا يمكنني رفع هامتي ...سأقصد شيخي المبارك وأستجير به...وسأسهر حتى الصباح الباكر مبتهلا إلى الله ؛ لإنقاذ قافلتنا المنكوبة ...أستودعكم الله ..

و لكز خاصرة حصانه بركابيه واستدار يمينا ، وانطلق حصانه ناهبا الطريق ،
بينما كانت عيون الشبان المذهولين تتابعه حتى اختفاته عن الأنظار...
- يا للمسكين التعيس ! سيهيم على وجهه من شدة الخجل..
- اللقلق مسكين ، لكنه يأكل الحية!
- إنكم لاتعرفونه حق المعرفة؛ فهو أثافي سبعة قدور!
- في كل شعرة من لحيته ألف حيلة ! خراء على لحيته!
- حسنا: وماذا عن مصير زيني؟
- ها هو... أنتم لاتعرفون خليفه الذي غلب حتى إبليس ؛ سيتسلل خلصة ذات
ليلة ويأخذها...إلى حيث يعيش...
- إن هذا أفضل لنا ؛ مادام قد ولى و غرب وجهه عنا
- يولي؟! لا أعتقد ، إنما سيقعي كالكلب عند شيخه المبارك متظاهرا بالتقوى
والورع ، و ينتظر حتى ينسى الناس فعلته هذه ..، وحتى حينئذ ليس بمستبعد أن
يعود فرج؛ فيقصده منزلا بمعسول الكلام ، ويغدو أخاه الذي لم تلده أمه!
- لن يُتاح له ذلك ؛ فقد ولى ذلك الزمن...
ثم تابعوا المسير ، بحدوهم جمال وهم صامتون لايتفوهون بكلمة، كأنما على
رؤوسهم الطير! في حين كان جمال يتوقف أحيانا كمثل من يصغي لأحدهم : "
بني..إنما الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته ، وما في مقدوره ان
يفعله ، وليس في أن يخدع ، ثم يخدع الناس بسراب الأمانى الخاوية والأهواء
..فلتتقّم بما لديك من إمكانيات ، ولاتحجم..؛ وإلا فإن الأهواء الجوفاء ليست إلا
ملاذ العجزة...إن معرفة النفس مفتاح الحياة الحقيقية، وأنتم وما تشاؤون.." و "
من الأفضل أن تذهبوا على الأقل ؛ لكي لايلومكم الناس ..أستودعك الله"
وكانت بسمته أحيانا تضيء وجهه الداوي برهة كومضة برق ، وهو يتذكر : "
ولدي العزيز جمال..إنكم رجال كرام ونبلاء ، وعرفتم بالمروءة والشهامة أبأ
عن جد "

ولكنه كلما تذكر مصير القافلة؛ كانت الدنيا تظلم في عينيه: لقد كان الأمل معقوداً على تكوين هذه القافلة وشروعها بالمسير، فإذا بالشيوخ وأبنائهم، ومريديهم وخليفه يختلسون زمامها ويصبحون أعيان القوم وأسود الميدان...!"

"بني..إنما الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته، وما في مقدوره ان يفعله.."

" ألا يورك في الصלב الذي انحدرت منه والحليب الذي أرضعتك به أمك يا ميرزا!"

وفجأة توقف ليخاطب الشباب، حيث جاشت الدماء في عروقه، وكانت أوصاله ترتعش من الإنفعال، فهدر صوته:

- أيها الشباب ..لقد إنتهت أيضاً قافلنا هذه!

فعلق الجميع بصوت واحد:

- إنتهت إذن!

- ولكننا لانستطيع الإستمرار بدون قافلة!

- أجل لانستطيع الإستمرار ...لانستطيع العيش..

- فهلموا لنقرر ألا نرقص بعد اليوم على طبل ومزمار كل من هبّ و دبّ

...أجل؛ لنعرف منذ الآن فصاعداً أنفسنا حق المعرفة؛ لكي نعرف الآخرين

على حقيقتهم، ثم إن الشجاعة في أن يعرف المرء نفسه، وقدراته، وما في

مقدوره ان يفعله، وليس في أن يخذع، ثم يخذع الناس بسراب الأمانى

الخواوية والأهواء..وإذا لم يكن الراكب فارساً؛ فسيصير عبداً على الفرس، و

إذا لم يكن حادي القافلة أهلاً لقيادتها؛ فسيُسبب في هلاك نفسه وضياع

القافلة...

(٨)

- كاكه سلام... يا كاكه سلام!
- نعم عزيزي آزاد.. تعال .. أنا في غرفتي
- قال كاكه دلير أن الأستاذ محمود مشغول حالياً ببعض الأمور؛ سيوافيك لاحقاً
بالجواب على رسالتك..
- هم آزاد بالإنصراف ، لكن سلام ناداه:
- تعال يا آزاد لأقرأها لك ؛ لأعرف رأيك فيها، فقد احتفظت بنسخة ثانية منها...
- فلبّي آزاد طلبه، فقال سلام : إذن إستمع:
- { الرفيق المناضل الأستاذ محمود المحترم
- تحية ثورية حارة
- لكي لاتشوه أية شائبة رسالتي ؛ فأتنا أسجل واقعة لقائي بذلك الرقيق سيابند ،
سيامند بلا زيادة ولا نقصان ، وأبعثها إلى جنابكم : أملا أن تنال استحسانكم..

بينما كنت واقفاً أمام الباب ، توقف ذلك الأرعن المغرور بلا أيّ تكلف كأنه قاصد بيت أبيه الكلب، وقال بتعال:

- نهارك سعيد

وعندها تذكرت تعاليم حضرتكم "....إذا ما شئت الإستخفاف بامريء ما وإثارة حنقه ؛ فضيق عينيك وزم شفتيك قليلاً، وتظاهر بجهلك له حتى لو كان من أقرب المقربين لك! أجل ؛ تظاهر بالشroud وانشغال عقلك وانصباب تفكيرك على مصير الأمة....!" فما كان مني إلا أن أضيق عيني وأزم شفتي ولم أجبه..فحدثني هنيئة ، وغمغم عند مروره أمامي:

- يا لها من مهزلة! إست في الماء وأنف في السماء!
فانتفضت في وجهه كعاصفة ثلجية:

- ماذا قلت يا رقيق؟!

بيني وبينك أستاذي العزيز إنه إبليس ؛ فقد تنصل من كلامه ، وأجابني بلا تردد:

- فديتك.. لاشيء

- كلا...فقد قلت شيئاً ما

- فديتك..لم أقل أي شيء

- كذاب..لقد شتمت

- ومن الذي شتمته؟

ولكي أستغفره ، وأهيج انفعاله وأستدرجه ؛ ليرتكب غلط ما، ذكرت اسم جنابك:

- الرقيق محمود

- لا تلتق لي هذا الكلام الباطل؛ فأنا لا أعرف هذا الرجل الطيب ، وليس من حقي أن أسبه.

وعندها تقصّدت أن أرفع صوتي وأصيح ؛ بحيث يخرج شوان فيكون بنوره شاهداً:

- جميل جداً..أليست عباراتك هذه شتائم؟!

- آية عبارات؟!

- ها....أتجاهلها؟! و هل ثمة شتائم أقذع منها؟!

- فديتك عذراً ؛ فقد غلطت !
- و لم تغلط؟
- كان إبليس يحاول الإفلات من قبضتي بآية طريقة ؛ فأجابني ببالغ الهدوء :
- لأنني ولدت بالغلط!
- ولماذا ولدت بالغلط يا قواد؟!
- وجم هنيهة ، ثم أجاب:
- عزيزي لا يتطلب الأمر برهاناً ؛ لم ولن يولد أي إنسان بمحض رغبته وإرادته
- و هل هذه فلسفة ، أم غلط؟!
- لم تنس الفلسفة هذا الغلط يا عزيزي
- واضح جداً بأنك تضرر الكثير و تظهر القليل جداً!
- واقتربت منه وسألته بالحاح:
- حسناً..و ماهي الفلسفة؟
- علم العلوم ..علم في غاية الرحابة...أم العلوم قاطبة
- و ما مدى رحابة الفلسفة؟
- إنها أرحب من تطور الطبيعة ومن تقدم المجتمع والفكر البشري !
- طيب ..إذا كنت تعرف كل هذا؛ فلماذا ولدت بالغلط؟!
- فديتك..إكراماً لخاطرك ، فأنا أعيش أيضاً بالغلط!
- و ماذا تفعل هنا إذن؟!
- مشدود بهذا المكان
- كيف؟
- بالغلط!
- فحذجته شزراً بنظرات نارية، وصرخت في وجهه؛ فمضى مسرعاً إلى الكنيف..فقلت لنفسي " لا بأس ..يبدو انه قد فقد السيطرة على نفسه من شدة الخوف" وحضر(ريبوار) في تلك اللحظات ؛ فسردت عليه الواقعة حرفياً مثلما أدونها لجناياك بالضبط ؛ فلم يستطع ريبوار ضبط أعصابه ، فهمهم ساخطاً
- لقد تصادى هؤلاء السفلة في صلقهم ؛ قسماً بكرستان لنجعلهم عبرة لمن اعتبر..
- لا، يا عزيزي ريبوار- و عذراً لتعبيري يا أستاذنا الجليل- سنجعلهم كاشية من أرضية المراحيض!

و فجأة علا صوت سيابند:
- كلما زاد السمامد الحاضن للبصرة؛ نبتت وأزهرت بسرعة، وتفتحت الزهرة
بصورة رائعة. زوكما إنحط المجتمع؛ تسارعت وتيرة ميلاد الفكر، وتسارع
حمل السلاح؛ فلابأس أن نكون الآن كاشية فوقكم!
وعندها اندفعنا للإنقضاض عليه، لكنه لاذ بالفرار.
ودمتم للنضال.

سلام

{ العضو المتقدم }

- فما رأيك يا آزاد؟ أظن بأن الأستاذ محمود سيستحسنها؟
- ليتني كنت أمتلك موهبتك الكبيرة في الإنشاء.. والله لو كنت مكان كاكه محمود
؛ لجعلتك مسؤول جريدة سياسية
فطرب سلام كثيرا لذلك المديح
- لماذا؟
- بيني وبينك. إنك تتفنن السب والوعيد!

(٩)

عجوز متشحة بالسواد وضعت صحفا من اللين الرائب أمامي وصبت لي
الشاي. كانت رائحة كريهة تفوح من الصحن، ونهضت العجوز متثاقلة:
- سأذهب لجلب قليل من الماء من النبع يا ولدي، أما أنت فتناول طعامك، ولا
حرج عليك؛ فاليبيت بيتك، فإذا تأخرت أنا في العودة وشتت الإنصراف؛
فاسحب الباب وراءك.
ورفعت رأسي، فإذا بإمرأة أمامي شبيهة بالخالة ميرم وهي تسير في مهب
الريح مرسلة شتائمها وصيحاتها: " هوو يا الله يا ناس يا أشجار يا حيطان يا
أرض يا سماء إني أخاطبكم جميعا؛ فلا تتحججوا من بعد (أن ميرم لم تحذرننا)
حذار أن تغلطوا وتأكلوا هذا الخراء مرة أخرى أن تقولوا: (سيابند ابن ميرم
كان خائنا) إغبين الفقير لايخون، والويل للقطانكم إذا قالوا عن رنج بأنه ابن
خائن! قسما بالله و كردستان سامرغ جباهكم في الوحل... هيّا اخرجوا إليّ

أخرجوا .. خسنتم يا جبناء أخرجوا لماذا تندسئون كالكلاب الحقيرة بين أفخاذ نساتكم... أخرجوا وانظروا ... فلماذا خذكم الموت جميعاً ؛ فداءً لساعة واحدة من عمر صادق دوغري... هو... أيها الناس والله سيابندي سيابندي إبني شهيد ... شهيد الشهداء ..."

" لقد قاست ميرم التعيسة بؤس الترمّل وشظف العيش؛ لكي تربي وتعلم ابنها ، وتحملت شتى صنوف الحرمان... أجل ؛ فقد ضحّت بشبابها وحياتها، وتنفسّت الصعداء؛ بعدما استطاعت أن تزوجه وتكون له بيتاً ، فانزاح عبء ثقل عن كاهلها، وأن أوان خلودها إلى الراحة ، ولكن سرعان ما وقعت الواقعة ؛ و كانما فُذر لها أن تربي اليتامى...وها هو دور حفيدها رنج!"

و فجأة جفلت على صوت صفارة ، فنهضت واقفاً أستجلي الأمر ، فإذا بالبيشمرگه يتقاطرون أفراداً وجماعات من أزقة القرية على المسجد ، بينما كان دوعي المدافع يتناهى إلى الأسماح ويتردد صده في بطون الوبيان ، وبين الفينة والفينة كانت لعلعة رشاش تستثير همم البيشمرگه الذين إحتشدوا جميعاً ، ماعدا دلير الذي لم يبذ له أثر.

وانبرى القائد (نبر) يخاطبنا:

- أيها الشباب.. لقد نشبت معركة ؛ فعلينا الإسراع لنجدة رفاقنا البيشمرگه ، ونصل إلى هناك في غضون نصف ساعة؛ إذا حثثنا الخطى. و ريثما نصل ، سيكون أخوتنا البيشمرگه قد قطعوا الطريق على قوات العدو، وهي قليلة ، ثم إنكم من البيشمرگه القدامى وأنتم أعرف مني ولستم بحاجة إلى إرشادات حسب اعتقادي، وحالما نبلغ المكان ، سيتخذ حملة بنادق البرنو مواضعهم، ويتقدم حملة بنادق الكلاشنكوف، أما حملة رشاشات الـ (بي كي سي) فيكونون على الجانبين ، ثم سيلو كل واحد منكم بلاءه في موضعه ...يا ترى هل تخلف أحد؟ - دلير فقط

- أف له..أي ديوث هذا الذي إبتليتني به يا محمود؟! بعد عودتنا سالمين من هذه المعركة؛ سأعالج أمره...والآن هيا يا رفاق فديتكم ...ليدبر كل واحد منكم شيئاً من الخبز من البيوت ، ريثما نغادر القرية...

تقدّمنا نبز ومع مسيرنا تزوّد البيشمركه بما تيسّر لهم من الخبز من البيوت الواقعة على الطريق ، وإذا بنا نرى دليّر واقفاً على الطريق ، وهو يحمل بندقيّة برنو بدلاً من بندقيّته الكلاشنكوف ذات الأخمس الحديد ، فخاطبه نبز بغضب:

- أين كنت أيها الرعديد ، وأين كلاشنكوفك؟

- استبدلتها ببرنو (خوشناو) يا كاكه نبز

فألقي نبز علينا نظرة ذات مغزى تفصح بصراحة " أنظروا إلى هذا الجبان ، وأجيبوني بضمائركم أ هو بيشمركه ؟ وهل كان له هنا مكان لولا أخته الـ...؟!"

و سرنا في طابور طويل. كان الجميع صامتين ، وكان كلّ واحد منا يفكر بالانتقام على حده.. وأنا في ريبه من هذا السافل دليّر وأخشاه كثيراً ؛ لربّما أرسله محمود خصيصاً لمراقبتي ؛ فقد إرتاب النذل فيّ بأني على علم باغتيال سيابند، ولكن لماذا لم يجاهرني بذلك؟! إنه داهية نخل، ويبدو انه قد إدخر لي العقاب. سينتقم مني حتى في آخر يوم من عمره. إنه أخس الأخصماء، ولا يتوانى عن اقتراف أية جريمة في سبيل مآربه الذنيئة... إيه...كفى يا مستو دعك من هذه الظنون والهواجس التي تراودك وجعلت الدنيا في عينيك جلد عصفور؛ فمن يكون هذا الديوث الجبان؟ والله لو استحال ناراً لما أحرّق قشة! ولكن.. لا، لا، لا يا مستو حذار من هكذا أذنباب؛ أو لم يتسببوا في اغتيال سيابند؟! مازلت أتذكر الواقعة ؛ فقد شككت والتصقت بركن عند الباب الأيسر، حيث أخذ سلام وأزاد سيابند وحالما وصلا باب غرفة الرفيق محمود دفعاه إلى الداخل بعنف، وهتفا بصوت واحد:

- ها هو يا رفيق محمود وبعد برهة صاح الرفيق محمود حانقاً:

- ما هذا يا (حرب!) (**) " سنجعلنهم كاشية لأرضية المرحاض" ما هذا

الهراء الذي تفوّت به؟ أخرج أيها الدنيء الرعديد يا سلام

ثم التفت إلى آزاد :

- وأنت لماذا تسمرت هنا؟! إغرب عن وجهي

فخرج اللذان كانا ذنبيين قبل قليل ، و مكثا يرتجفان أمام الباب كعُلبين مذعورين ، وكان سلام يرمق وجهه آزاد بنظرات ذليلة كنظرات طائر مقفوص ، وهو يتذكر عباراته : " ليتني كنت أمثلك موهبتك الكبيرة في الإنشاء.. والله لو كنت مكان كاكه محمود ؛ لجعلتك مسؤول جريدة سياسية " ها...!

كان سيابند أهلاً لمجابهتهم ؛ حيث كان يعرف مواطن ضعفهم ، وإذا ما وجه إليه أحدهم إهانة ؛ كان يردّ عليها بعشر ، ويلقي الرعب في قلبه...
التفت الرفيق محمود إليه:

- ما اسمك؟

- غلط!

- ابن مين؟

- غلط!

- بالله عليك كيف يكون (غلط) إسماً؟!

- مادام أفضل من (تضليل) يا رفيق محمود (***)

- و مين يتسمى بـ (تضليل)؟!

- الكثيرون هنا وهناك

- مثلاً؟

- إسألوا أنفسكم و أجيبوا!

- حسناً.. أيها الولد الطيب ما الفرق بين (غلط) و(تضليل)؟

- من أيّ جانب؟

- و كم جانباً له؟!

- العديد

- بين لي جانباً واحداً..؟

- هل لأنكم تقيمون الأمور من جانب واحد؟

- إخرس... هات ما عندك

- حسناً... سأحلله لغويّاً

- تفضل..

- الغلط : إسم ، مفرد ، معرفة. التضييل: مصدر، وهو أصل مصدر كل المحاسن والمساويء... أما المحاسن فعلها السلام ؛ فهي تُشْتَق عندنا عشرات المرات يومياً... ويكون فعل التضييل لازماً وبالنتيجة يتحرك الغلط داخل حدوده ، حاملاً عوامل تنقيته، لكننا (التضييل) يتعدى حدوده؛ مستبطناً عوامل ثلوثه وقذارته!

- طيب...مادمت تفكر هكذا؛ فماذا تفعل هنا؟!

- إنني مشدود إلى (هنا) بل أن جذري متأصل (هنا) ولي ضمير حي نابض..

- أ هذا جواب سؤالي؟!

- نعم هو بالذات ، لكنك تجهل جواب سؤالك!

- يعني أنا حمار؟!

- لا أدري

- حسناً. ماذا يعني الضمير الحيّ النابض؟

- التواصل الحميم مع الناس وإدراك هموم وأتراح البؤساء وطموحاتهم

فز عرق الرقيق محمود:

- تعالوا خلصوني من هذا الرقيق!

فاندفع سلام وأزاد إلى الغرفة كذنبين جانعين ، واقتاده بسرعة إلى الوادي .

أحنيت رأسي ، وغشيت الدموع عيني: " سيقتلانه ؛ فما أيسر القتل ...! "

" إنه يروج أفكاراً سامة "

" ...نقلته، وبعدها نذرف عليه بعض الدموع أمام انظار الناس.. "

" سيقتلونه. سيقتلونه ؛ ثم يلقون شتى التهم بحقه ويحسبونه خائناً خطيراً! "

ثم ركضت نحو ركن سائر ، وكبوت على وجهي ، وغبت عن الوعي ، وبعد

هنيهات عصفت بقلبي لعلعة صلية عيارات نارية بعيدة...فخاطبت نفسي : " يا

تري ألا نُقتل نحن أيضاً هكذا غيلة و غدراً..؟! "

واصل طسابور البيشمركة الطويل طريقه...كنما نرتقي المرتفع
 صامتين..واقتربت منا لعلعة الرصاص و دوي القذائف ، وانتفضت ورفعت
 رأسي إثر انفجار قذيفة مدفع..إذن ؛ لم يبق الكثير أماننا، سنصل قريباً ، و
 واصلنا السير...لكنما عيناى مغوشتان و تشهدان الخالة ميرم ! أ هي حقيقة
 أمامي ، أم شبح يجوس في مخيلتي؟! أقترب منها، فتبتعد عني و هي تصيح : "
 " هو يا الله يا ناس يا أشجار يا حيطان يا أرض يا سماء إني أخاطبكم جميعاً؛
 فلا تتحججوا من بعد (أن ميرم لم تحذرنّا) حذار أن تغلطوا وتاكلوا هذا الخراء
 مرة أخرى أن تقولوا : (سيابند ابن ميرم كان خائناً) إين الفقير لا يخون"
 وأعادني هدير طائرة من شرودي ؛ فرفعت رأسي وتمنعت فإذا بالثل المقابل لنا
 قد تسريل بالنيران والدخان، ورائحة البارود تغمرنا.. " أينما وجد العسف ؛ وجد
 البيشمركة" وسارعنا في اتخاذ مواقعنا حسب توجيهات كاكه نيز و سرعان ما
 احترم انهمار وابل الرصاص..وطبعاً يشعر المرء بمسحة خوف قبل أن تحتدم
 أية معركة، ثم يتبدد الخوف مع اشتداد وطيس المعركة، لكن الغريب في الأمر
 هو إنني مازلت خائفاً، بل أن هاجسا كابوسياً يجثم على قلبي " وا خلتاه يا
 مستو يا ترى تتوجس خيفة من دلير الوضع؟! " وعندها ضغطت على الزناد
 لكن لم تنطلق أية رصاصة ! فغيزت الشاجور بسرعة، ثم كم إستهيت سيكارة "
 لا، ليس الآن وقت تدخين يا مستو...إنما فيما بعد..". وثبتت عيني على الفرضة
 والشعيرة ، وإذا بصور ميرزا و خليفه خدر والفاقلة تبدو لناظري وتختفي
 بسرعة : " إذن فهو رجلك المفضل! تأكد يا خليفه ان قافلة يقودها جاهل آخرق
 مثله ؛ لايسطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط في مائة
 هاوية حتى لو إنبسظت الأرض أمامها!" وتقدمت نحو الأعلى قليلاً ، فلمحت
 مجاميع من الجحوش " يا إلهي إنها معركة بين البيشمركة والجحوش الكردي!"
 وضجت أوصالي بالحركة وأنا أسدد بندقيتي نحو الهدف، لكن أنني إمتلأنا
 بصوت جهير حاولت طرده كذبابة ، لكنما سدى ، فقد كان صوت ميرزا "
 البيشمركايتي محبة خالصة بلا رياء" فجاشت و هاجت جوارحي ، ورحت
 أطلق الرصاص ، حيث كان ألق شبيه ببسمة على شفتي رضيع يغمر قلبي مع

كل إطلاقه... وراح صوت أمي يغزو مسمعي: " أنظروا إلى وجهه البشوش فهو كوجه الملائكة... " لكنني أتساءل الآن : لماذا لم تزرني مع أبي؟ يبدو انها كانت حاملا تشعر بالخجل من منظرها ، بل خشيت أن أمازحها أمام رفاقي مثلما في السابق " متى سيتوقف معملكم عن الإنتاج يا ماما؟! " أه! كم أنا مشتاق إليك يا أمي ! أبداً لن أنسى تلك الأماسي الصيفية ، إذ كنت أعود من العمل ، فتحدبين عليّ وتدلكن يديّ وقدمي ، وكنت تمطرينني بالقبل ؛ لو أتحت لك المجال ، ولو كنت الآن هنا ؛ لما بخلت عليك، بل كنت أمتحك مائة قبلة بدل واحدة... أمآه ! شكراً جزيلاً للجواريب التي حاكتها يداك المباركتان...

وفجأة سرى الخدر في ساقي ، وعلت صيحات البيشمركه:
- لاحقوهم إنهم يغرون... إحرموهم من فرصة الفرار... لفتوهم درساً بليغاً؛ لنلا
بجحوا إلى الضلال مرة أخرى وتطأ أقدامهم ترابنا المقدس.

كان البيشمركه يصلولون و ينقضون على الأعداء كالأسبالي ، فاستجمعت قواي للإندفاع ، خصوصاً وان إحدى ذراعيّ وإحدى ساقيّ كانتا متخترتين قليلا، وتقدمت خطوتين ، لكنني كبوت على وجهي، وقبل أن أستقيم واقفاً... أخ... شئت حرقه شديدة في فخذي من الخلف ! فسارعت بلف الجرح بيشماغي ، واندفعت راكضاً إلى الأمام غير شاعر بأي ألم ، ولا أعرف كم المسافة التي قطعتها ، حيث سقطت على الأرض وغبت عن الوعي.

هاهنا في أحضان هذا الوادي ، مازالت الشمس هي المؤشرة الرئيسة لمعرفة الوقت صباحاً ، ظهراً و مساءً...

كان بين (الخال عزيز) و(خليفه خدر) جفوة قديمة متأصلة، و طالما كان الصبية النزقون يشاكسون الخال عزيز ويزعجونه بالقول:

- إختلط عليك الوقت يا خال عزيز؛ وقد فات موعد الصلاة...!

فإذا كان القاتل من أهالي القرية ؛ فكان يستشيط غضباً، ولايستثنى برشقات شتانمه أمّا أو أختاً أو حيّاً أو ميتاً! أمّا إذا كان القاتل من البيشمركه ؛ فكان ينظر إليه بنظرات طافحة بالعتاب ويقول: " أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمركه.. "

بحيث ذاعت هذه العبارة على السنة اليبشمرگه، وراح معظمهم ممّن كانوا يعرفون الخال عزيز أو لا يعرفونه يركدونها " أينما وجد العسف ؛ وجد اليبشمرگه" كما أطلقوا اسم (شجرة الخال عزيز) على شجرة التوت أمام المسجد.

كانت الشمس على وشك الغروب ، لمّا فتح مستو عينيه تحت شجرة الخال عزيز، ورأى الخال عزيز واقفاً بخشوع ورجع يتمنّن في جسده المسجّى.. ابتسم مستو كأنه يبش في وجه الملائكة :

- أي...ن...ما ..و...جد...عس...ف...أواه ! ظاميء...تكاد أحشائي تحترق...
تراجع الخال عزيز واستدار نحو الشمس الموشكة على الغروب وأجهش في البكاء...وعندها شق ميرزا طريقه بين الحشد وقرص قرب مستو المسجّى ، ووضع يده على قلب مستو:

- مستو..عزيزي مستو...هل تعرفني؟
فأجابه مستو بنظرة حانية واختلجت شفتاه بابتسامة عذبة كأنه يقول له : "
صدقت في قولك: تأكد يا خليفه ان قافلة يقودها جاهل اخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط في مائة هاوية حتى لو انبسطت الأرض أمامها!"

والخ ميرزا:

- مستو يا مستو ..استحلفك بمقدساتك قلّ شيئاً
ففتح مستو عينيه وجال حواليه ناظراً إلى المتحلقين به ، وبدا كأنه يستجمع كل ما بقي من قواه ، واختلجت شفتاه المتمتمتان:
- الإنسان...حقيقة كبيرة...الفعل يختبرها و...آه...آه...الموت يصدر عليها...آه...آه...الحكم الأخير.

وراح وجهه الشاحب ينضج بالعرق، وتجحظ عيناه كمثّل كنتوتيّ عصفورين خائريّ القويّ يحاولان الطيران خوفاً من أفعى.. ثمّ تسجّت شفتاه:
- ميرزا أنذاني..ت..ط..نان

(١٠)

سار صادق دوغري محني الظهر، واهي الركبتين و مكروباً وراء حشد من المشيعين الواجمين الذين يغشى الحزن وجوههم ، حيث كان شابان يمسكان طرفي تابوت مغطى ببساط أحمر خشن مشدود بظهر بغل..

- حين نصل إلى الجهة الأخرى سننقله بعربة تراكتور
- وا خسارناه! على استشهدا مستو؛ فتى ولا كلّ الفتيان...
و كنت تسير شاخص النظر إلى الأرض ، مشوش الحواس ، وكأنك غائب عن هذه الدنيا! فقد حدثوك كثيراً، لكنك لم تسمع شيئاً، بل كان تفكيرك منصّباً على كم رصاصة أصابته وفي أي موضع...؟!
- ليس مستو إنك وحدك ، ولم تفقده وحدك ؛ لقد كان بحق ابننا البار جميعاً.
- لقد أرسل ميرزا في طلب المعول والمجارف لفتح قبره
- نستحلفك ألا تغير مثواه ؛ إذ تبدو هذه الأرض من نصيبه

- لقد عنيانا بالغ العناية بغسله وتكفينه، و لو كنت بنفسك موجوداً؛ لما فعلت أفضل منا

- ثَقُ أن قلوب كبار القرية وصغارها يعتصرها الحزن والأسى على رحيله؛ فحتى الذين لم يصلوا طوال حياتهم قصدوا قبره مساءً وصلوا عليه!

- جازاهم الله خيراً على شهاتهم و أدام الألفة بين القلوب، لكنهم لا يدرون لماذا غيرت منواه! فالوجع المنغرس في قلبي لا يتحمله أي قلب آخر....!

رفعت رأسك ، ونذت من فمك أهة طويلة و زفرة حرى... و غمرتك رائحة غريبة منعشة شديدة الخصوصية ، وكان الرجال قد كمنوا أنوفهم وأفواههم و لم تدر هل من الحزن أم من تلك الرائحة؟! إنها رائحة غريبة يا ترى رائحة ماذا؟! فهي تشبه رائحة وردة داوية حديثاً ، لا، بل هي رائحة امرأة نفساء حصرأ!

أجل ؛ إن المرأة النفساء كثيرة الأحلام ، وأنت بطبعك تخشى كثيراً أحلام المرأة النفساء! وكلما كانت آتة تلد طفلاً؛ كنت تتحر ذبيحة قرباناً لسلامتها .. أما هذه المرة ؛ فاللعنة على الفاقة والضنك ... وصار كلك رجاء أن تتعافي آتة وتنهض بسرعة قبل أن ترى أي حلم ... لكنما وقع المحذور ؛ وتمخض حلمها عن هذه الفجيعة المهولة: " أرجوك يا رجل أن تتحر ذبيحة نذراً، وأنت يا رب إرفق بنا في شيخوختنا ، ولعنة الله على الشيطان الرجيم ؛ فقد رأيت في حلمي مستو واقفاً أمام مسجد حليق الشعر مرتدياً ملابس سوداء وهو يقهقه ضاحكاً !"

وجفلت على هدير التراكتور، وقدم الحضور تعازيهم الحارة لك ، و بعدها ركبت التراكتور يصحبك إثنان من أقربائك البيشمرگه.. " يا ترى ماذا نسمي ابننا هذا يا آتة؟"

" ليسميه مستو ..إذهب و زره ، وليجد إسماً جميلاً له"

و سار التراكتور واقتربت من المدينة

" سمّه أيضاً مستو!"

وبلغتم طرف المدينة، حيث توقف التراكتور ، ونزل منه البيشمرگه ؛ ليعودا من حيث جاءا ، ولكنك سألتهم قبل الوداع:

- لي سؤال يؤرقني ؛ فأرجو و أستحلفكما بالله وكرستان أن تجيباني عنه بكل صراحة...هل كان مستو فتى جبناً يولي الدبر في المعارك؟

- كلا ، والله كان بطلا مقداما في كل المعارك ، بل كان في طليعة الصائدين.. لكن لماذا سألت هذا السؤال؟!
 فانطلقت منك تنهيدة عميقة حارقة:
 - لأنه أصيب من الخلف!
 فتسمرّا في مكانيهما متخشبتي الأوصال، بحيث لو طعنا بالخناجر لما سالت منهما قطرة دم!
 ثم صافحاك مودعين إياك ، فأشرت إلى جثمان فلذة كبديك :
 - أستودعكما الله...
 " وا أسفاه! فهو لم يشهد السنة الجديدة، ولو كنت تدري بأنه سيفارقكم بهذه السرعة ؛ لكنك تزوره أسبوعياً... أجل ؛ فعند الفراق تتجلى المحبة"
 ت ٢ / ١٩٨٦ ياخسمر

(*) دوغري: كلمة تركية شائعة تعني (صحيح ، مستقيم)

(**) هنا تلاعب باسم (سلام)

(***) تلاعب بلفظتي (هه له = غلط) و(هه له له تاندن= تضليل)

إشكالية الثورة والواقع في (الرحيل الدامي)

أبو شهاب

" ليس بالسلاح وحده تقوم الثورة و تحيا " مثل هذا القول قد ينال إستحساناً وقبولاً على مضض ، وقد يثير نقاشاً ما في أقل الاحتمالات...أما إذا قيل: "ليس السلاح هو الشرط الأول للثورة" ؛ فالنقاش لا يلبث أن يتحول إلى إشكال، وربما إلى مباحكة سياسية.

و بما أن كلا القولين السابقين ينشأ عن إستقراء عمل أدبي ، ويُناقش في سياق التعرف على ملامح شخصية قصصية ؛ فإن منطق السياسة، في الأستقراء و النقاش على حدّ سواء، لا يعود معنياً بالأمر هنا إلا بقدر ما تفسح له ضرورات المعالجة الأدبية من مجال...

ما هي الثورة؟

لا يختلف إثنان على ان الثورة رفض منهجي لواقع معيّن أو حالة معيشة، وفي الوقت نفسه مطالبة بواقع بديل أو حالة مغايرة..وهذا يعني أن الثورة هي (لا) و (نعم) متتاليتان ومتربطتان ؛ فالثورة بدون الـ (لا) تقتفي و بدون (نعم) تتحول إلى مجرد نزعة عدمية. ولكن سؤاليّ يفرضان نفسيهما: (لا) لأي شيء؟ و (نعم) لأي شيء؟

وبعبارة أخرى: ما هو المرفوض و ما هو المقبول؟

لاريب في ان العلاقة القائمة بين الـ (لا) و الـ (نعم) تفضي إلى الغايات التي تتبناها الثورات ، وإن إحلال المقبول محل المرفوض يفضي إلى تحديد الوسائل الملتزمة. واستناداً إلى التراث الثوري العالمي ، النظريّ منه خاصّة؛ فإن " شرف الغاية من شرف الوسيلة " على حدّ تعبير ماركس ، ويتبع ذلك إذا شابت الوسيلة شائبة أو إعتورها سوس أو تخللتها رذيلة؛ فإن الغاية تفقد مصداقيتها ومشروعيتها، بل يحيط الشكّ بجدواها و بإمكانية تحقيقها...وما يثير الإستغراب

هو أن ثمة آلاف مؤلفة من الناس مازالت تعتقد و تؤمن جدّيّاً بتلك المقولة و مصداقيّتها الواقعيّة و ممارستها التطبيقيّة رغم كل الرذائل الممارسة يوميّاً في كلّ أرجاء العالم بما فيها الثورات باسم الغايات الشريفة السامية!

وإذا كان الرائج أن ماكياقلي هو أول المنظرين لمبدأ " الغاية تبرّر الوسيلة " والداعي إلى تطبيقه ؛ فالصواب هو أن هذا المبدأ كان سانداً و ساري المفعول قبل ماكياقلي بزمان سحيق ، منذ أن وجدت المصالح المتباينة و قامت الخلافات و النزاعات و الصراعات بينها، ثم ما برح هذا المبدأ ساري المفعول على أفضل وجه ، بل أن عصرنا هو عصره الذهبيّ بلا منازع! وبلا أيّة أوهام و أيّة مباحكة غير مجدية نقول أن الثورات المعاصرة ، بما فيها الإشتراكية، قد برعت في تطبيق و تكرير هذا المبدأ براعة لا تقل عن براعة الدول و الحكومات؛ و لا عجب في ذلك ؛ مادامت تطمح هي أيضاً أن تصبح دولا و حكومات ، و ذلك بالعكس من مبادئها و شعاراتها المطروحة في بياناتها و بلاغاتها، ناهيك عن هجماتها الصاعقة على الايديولوجيا البرجوازية و دعائها و مفكرها، وفي مقدمتهم ماكياقلي السييء الحظ! وقد لا يصدّق الكثيرون أن لينين نفسه (التلميذ المتفوق لماركس و نبيّ الثورة الإشتراكية) كان يردّد و يؤكد : " لا أخلاق في السياسة ، هناك فقط مصالح " و هو يعني أن كلّ فعل مباح و كلّ وسيلة مشروعة ؛ من أجل الغاية المنشودة : التحرّر، الإشتراكية ، العدالة ، مجتسع المساواة... إلخ وهناك آخرون كثيرون قد يهزون أكتافهم باستخفاف أو لامبالاة و هم يقولون : " و ماذا بعد...؟ لقد جرى الأمر هكذا... ربّما يكون هذا ضروريّاً... و لا مناص منه... إلخ " و هو قول لا يخلو من الصواب؛ حين ترنّده جموع تعودت على السلبية و استمساغتها كشكل لوجودها؛ إذ أن للرذيلة السياسية قوة البديهة و سلطة القانون و شفرات التاريخ ! بل أن أغلبية الناس لا ترى ضيراً في الإنخراط في دائرتها و ممارستها، و هي بذلك إنما تختار الـ (نعم) النهائيّة و تنغمس فيها بوعي أو بلا وعي... إلا أن بطل روايتنا هذه ليس واحداً من هذه الأغلبية.

لقد سبق للمفكر والأديب الفرنسي ألبير كامو أن تساءل: " الغاية تبرر الوسيلة ؟ هذا ممكن ، ولكن ما الذي سيبرر الغاية؟ على هذا السؤال الذي يتركه الفكر التاريخي معلقاً، يجيب التمرد: الوسيلة ستبرر الغاية" (البيركامو/ الإنسان المتمرد/ ترجمة : نهاد رضا/ منشورات عويدات/ ص ٣٦٢)
حسناً، ما معنى أن الوسيلة ستبرر الغاية؟!

لاندحة من عودة خاطفة بهذا الخصوص إلى كامو في كتابه المذكور.

يبدأ التمرد بوعي الإنسان لكيونته، و بوجود (حد) يعني تجاوزه من قبل (الأخر) تحطيم هذه الكيونة أو جانب منها، أو إضطهادها على أقل تقدير. وعن ذلك ينشأ لدى الأفراد إدراك " بأن في الإنسان شيئاً يمكن للإنسان أن يتوحد منه ذاتياً، و لو لوقت قصير" وهذا الإدراك يتضمن بالضرورة قيمة إيجابية تقف ضد وعلى النقيض من قيم (الانتقام) أو (الفعل) أو (الحقد): " الغل هو دانماً غل ضد الذات، أما المتمرد ففي أول حركة تصدر عنه، يرفض من كيانه. إنه يناضل من أجل سلامة جزء من كيونته، ولا يسعى إلى التوسع ، بل إلى تأكيد الذات" فالمتمرد " يطالب بحرية معينة لشخصه، ولكنه لا يطالب في أية حال من الأحوال بحق تحطيم كيونة الآخرين و حريتهم ؛ إذا كان منطقياً. إنه لا يذل أحداً. والحرية التي يلتزم ؛ يطالب بها من أجل الجميع، والحرية التي يرفض؛ بمنعها عن الجميع، فهو ليس فقط عبداً ضد سيد، بل هو أيضاً إنسان ضد عالم السيد والعبد" (نفس المصدر ص ٣٥٢) فيبدأ تمرده بالانتظام في ثورة على السلطة الغاشمة التي تستعبده أو تضطهده: (سيد، حكومة، سلطة دينية... إلخ) لكن هذه الثورة ما إن يشتد عودها، وتتوطد أسسها، وتبدأ بإحراز أولى نجاحاتها؛ حتى تنتكر لأصول التمرد، و تواجه أحد مأزقين: إما إنكار نفسها، أو إنكار كل ما سواها، حيث تجد نفسها مضطرة إلى الاختيار بين الـ (نعم) النهائية أو الـ (لا) النهائية، أي بين التخلي عن التمرد، أو التناكر له.

و الحال أن التاريخ ، كما يبينه كامو، يتجه دوماً بالثورات المعاصرة إلى العدمية ، أي إلى خيانة قيم التمرد النقية بإنكار كل شيء ماعدا نفسها، بما في ذلك: تبرير إمتهان كرامة الإنسان والعنف والقتل ، ومن ثم إستبدال وضع

التعسف السابق الذي ثارت عليه بوضع جديد لا يقل عنه تعسفاً؛ تحججاً بتحقيق أهداف وغايات نبيلة موجلة دوماً إلى أزمنة غير معلومة. و مثملاً لايوجد عبيد بلا سادة و لا سادة بلا عبيد؛ لن تسود العدمية والإنكار التام بدون توافر عنصر الخضوع الكلي للطرف الآخر، أي لا سيادة لـ (اللا) النهائية على طرف الوضع المستجد بدون تكريس الـ (النعم) النهائية على الطرف الآخر كله، وعندها ينبغي على المتمرد المتكرر لمبايدي تمرده أن يختار في هذا الوضع المستجد إحدى الحالتين: عبد أم سيد؟ ضحية أم جلاّد؟ مستكين أم مستبد؟ وعند هذا الحد حيث تغدو حركة التمرد المنتظمة في ثورة ما أداة للسلطة الكليانية الجديدة وللنزعة العدمية التاريخية؛ ليس للمتمرد الحقيقي الذي مابرح أميناً لمبايدي تمرده إلا أن يقف وحيداً، غريباً و أعزل ، بل مصرّاً على مواصلة تمرده وكفاحه حتى نهاية المطاف؛ حيث لا خيار له حتى لو أدرك عبث كفاحه، وأن يظلّ متعلقاً برؤيته السوية للكرامة والجمالية الإنسانيّتين المدهوستين تحت أقدام العدمية الغليظة، وملحاً في طرح الأسئلة على نفسه و على العالم: أين هي الغايات التي أرتكبت من أجلها كل الرذائل والتذلات والحماقات والجرائم وأهدرت في سبيلها كل تلك الدماء، وبررت كل تلك الوسائل؟! وأن يظلّ في الوقت نفسه ملحاً على طرح الجواب نفسه عن ذلك (السؤال الذي يتركه الفكر التاريخي معلقاً) : الوسيلة هي التي تبرز الغاية؛ وإلا فلا غاية هناك البتة، وليس هناك سوى العبودية والعنف والرذيلة ، بل ليس هناك سوى العدمية العمياء الضاربة في مجاهل التاريخ على غير هدى!

لقد قلت أن بطل روايتنا ليس واحداً من (الأغلبية) التي تقبل الإنخراط في دائرة أو حراك النزعة العدمية باختيار الـ (نعم) النهائية ، أو الـ (لا) النهائية؛ إذن أين يجد موقعه بين إشكالية مستعصية الحل ، أو التجاوز بين ثورة إتخذها إطاراً للتمرد و واقع متولد عن هذه الثورة يتنكر لأصول التمرد ، و ما انفكّ يتجه نحو العدمية.

إبتداءً، لا يبدو البطل ، عبر التعرف على أولى ملامحه، على قدر كاف من النضج و وضوح الرؤية؛ فهو يقرّر الإلتحاق بصفوف البيشمركة في الجبال

ناشداً إجتراح البطولات و تسطير الأمجاد أكثر من نشدانه لممارسة التمرد بمعناه الحقيقي و تحقيق القيم التي يفترضها هذا التمرد: " - إنك طفل... ما زلت طفلاً " لا يكف أبي عن ترديد هذه العبارة، كما لو انني لم أفطم بعد! والله لأفعلن ما لم يخطر ببال أحد ؛ بحيث يحوك كل شخص ملحمة لي ! " ومع ذلك لابد من الإفتراض بأنه مدفوع إلى الجبال لرفضه وضعاً معيناً إحتج عليه ، لكنه احتجاج ورفض العبد المناهض للسيد ، وليس رفضاً و احتجاجاً ضد (عالم السيد والعبد) هذا هو الإنطباع الذي يخلفه البطل في نفس القاريء في لقائه الأول به، و هو لقاء سريع يتم في الجملة الأولى من الرواية، علماً أن البناء الفني للرواية بلغة النقد يستند إلى (البنية المتعددة الأصوات) فهناك: (صوت الأب) و(صوت البطل) و(صوت ثالث) يتخلل هذين الصوتين هو صوت القاص نفسه، كما ان أحداث الرواية تجري في خطين يتخللان بعضهما بالتناوب. وعندما يلتقي القاريء بالبطل مرة أخرى، بعد صفحات عديدة؛ يجده (سناً للغاية) بعدما تمرّس في الواقع ، وأعرض عن سراب البطولات والأمجاد، ويعاني في تفكيره من تناقض قد لايعيه تمام الوعي؛ حيث يرى (البيشمركايتي هي لب و جوهر الثورة) والثورة (تغيير في كل ميادين الحياة) أما واقع الحال فتمة (قتال) وليس هناك (ثورة) وإذا ما أريد للقتال أن يغدو ثورة؛ فلا بد من أن ينطبع بـ (طابع الكادحين) و " أن نحذر من البرجوازيين؛ لأن من شيمة البرجوازيين في العالم قاطبة ان يعضوا شوطاً أو شوطين ، ثم ينحرفون عن الطريق ، بحيث تغدو الثورة مصدر خشية وتهديد لهم! " ومع ذلك نسمعه بعد بضعة أسطر يقول في حوار داخلي: " ... صحيح أن البيشمركايتي عبادة، ولكنك لاتدرك في أية حماة أسنة نتمرغ! حماة تعج بالصصوص والأقاقين والمهرجين والمتطفلين والمشعوذين والمداهنين والمقاولين والتافهين والمرائين والسياسيين التجار المحترفين ! أما ترى النيران تحرق بنا من كل صوب ؛ إذا بقينا ماكثين في المستنقع وتغزونا الرائحة النتنة شيئاً فشيئاً، وإذا ما إخترقنا الطوق خارجين ؛ فنصير طعماً للنيران؟! فماذا

نفع يا ميرزا؟ لا بدّ ، كما يقول الأستاذ محمد، أن نقذف النكتة في النار بأيدينا؛ لكي نمثل أنفسنا تماماً.."

ويمثل التناقض في تفكير البطل فيما يلي: إذا كان واقع البيشمرگاني (العمل الفدائي) قد إنتهى إلى أن يتحوّل إلى حماة أسنة تعج بكل تلك الأصناف الكريهة من الناس ؛ فمن المستحيل تحويل (القتال) إلى (ثورة) ويكون مجرد التفكير في إمكانية ذلك ضرباً من السذاجة...ويبدو أن الأحداث اللاحقة في الرواية ستدلّ على هذا التّشخيص و تحسم التناقض لصالح الواقع (الحماة الأسنة) ضد البطل ؛ إذ سيبقى القتال مجرد (قتال) و(التغيير في كل ميادين الحياة) سبلوح حليماً طويلاً أو مجرد وهم ، وتشتد رائحة النكتة و تتصاعد فتزكم أقوى الأنوف وأضعفها على حدّ سواء، وستندو النيران أكثر من الأجساد، بل ستتكاثر أصناف (اللصوص والأفاقيين والمهرّجين...) وتقوى سطوتها، ثمّ سيتضح لاحقاً في أحداث الرواية كمثل الواقع خطأ تصوّر البطل بأن (البرجوازيين غير قادرين إلا على قطع شوط أو شوطين...) بل سيتضح له لاحقاً بأن (الحل والربط بأيديهم)؛ فلا خلاص له و لسياسته وأمثاله من الحماة التي ستقضي عليهم ، وإن (القافلة) ستصيبها النكبة لا محال، ناهيك عن إنها لن تبلغ شاطئ الخلاص المنشود.

ثمة جملة يخاطب ميرزا إسماعيل بطل الرواية ؛ فيتخذها شعاراً لأنها تعبّر أصدق تعبير عن نزوعه : " البيشمرگاني (العمل الفدائي) عبادة خالصة بلا رياء" وثمة جمل أخرى يخاطب ميرزا بها (خليفه خدر) توجز مايؤول إليه التمرد بعد التتكر لمبادئه : " ناكّد بأن قافلة يقودها جاهل أخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا في هوة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!" وهناك عبارة أثيرة يتفوّه بها (الخال عزيز) فتدفع على أسنة الناس ، وهي تختصر الوضع الذي يمزقه التناقض بين التمرد والعدميّة : " أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمرگه.." ويتضح في المشاهد الأخيرة للرواية بأن البطل الذي يبدأ التمرد على نحو رومانسي ويدرك بأن " البيشمرگه هو من أشعل في ذاته ثورة عارمة" سيغدو ضحية للزرعة العدميّة

التي أفضى إليها تفسخ التمرد بعد انقطاعه عن جذوره، ويتقبل موته الخاص مرزدا: " أينما وجد العسف ؛ وجد البيشمركة.." وكأنه يصرّ مؤكداً ألا مناص من التمرد والكفاح رغم العدمية السائدة، بل لا مناص من أن يكون المرء ببشمركة ؛ مادام هناك عسف حتى لو أضحي ضحيةً لذلك الوضع ، بل و يتقبل موته الخاص إختياراً ؛ " فالتمرد الأمين لأصله يدل في التضحية على أن الحرية الحقّة ليست إزاء القتل ، بل إزاء موته الخاص " (المصدر السابق ص ٣٥٤)

للتحدّد الأرضية الزمنية للرواية بفترة أو مرحلة معيّنة ؛ فتمّة تداخل بين زمنين مثلما فيها تداخل بين خطّين ، وقد تكون أحداث (القافلة) على أحد نينك الخطّين ترميزاً لمسيرة الثورة الكردية وانتكاستها في عام ١٩٧٥ : "... يا أختاه اذهبي واخبريه أن قسماً من القافلة قد انفصل عنها ، والقسم الأكبر منها لا يجد سبيلاً للخروج من (جبل الصّدّ ما ردّ) ولن ينجو منهم أحد ؛ حتى لو إمّلك سبع أرواح!" بينما تبدو الأحداث الدائرة على الخط الآخر بمثابة استمرار وتقاطع مع أحداث (القافلة)..إن الأحداث الدائرة على كلّ خط من كلا الخطّين تبدو كـ (معادل موضوعي) للأحداث الدائرة على الخط الآخر، و مايعزز هذا الاعتقاد هو أن مفتاحي الخطّين (إذا جازت مثل هذه الإستعارات) نجدهما لدى شخص واحد هو ميرزا إسماعيل، وهما عباراته المتكرّرتان في الرواية: " البيشمركايتي عبادة خالصة بلا رياء" و " تأكد بأن قافلة يقودها جاهل أخرق مثله ؛ لا يستطيع مائة حكيم ونبيه إعادتها إلى سواء السبيل ، بل تسقط لا في هوة ، بل في مائة هاوية حتى لو إنبسطت الأرض أمامها!"

والملاحظ أن البطل لا يبدو عنصراً فاعلاً في أحداث الرواية، أو مانعاً لها ، أو مشاركاً في صنعها ، أو مؤثراً فيها، وإنما يبدو كممثل مرآة تنمّأ في صور الشخصيات الأخرى وتتوالى عبرها الأحداث و تنعكس عليها ظلال الإشكالية التي يعيشها بين تمرد أراد أن يكون ثورة حقيقية وبين واقع متفسخ لا يكف عن إخماد أصوات التمرد الحقيقي ، لكن هذا لايشكل عنصر ضعف في الرواية أو ينتقص من مستواها الفني ، وإنما يشكل تصويراً تكنيكياً ناجحاً في رسم ملامح البطل في بنية روائية متعددة الأصوات ، أمّا مايشكل نقطة ضعف

في شخصية البطل فهو صمته إزاء جريمة إغتيال (سيابند) وامتناعه الإدلاء حتى لأبيه ، ولو بجملة ، عن مقتله ، وهو سكوت غير مبرر قطعاً ؛ مادام قد قرر تقبل موته الخاص.

لابد من القول ، قبل الشروع بقراءة الرواية ، انه من السذاجة والعبث أن يفتش القارئ في الوجوه الواقعية عن وجه : (محمود) أو (مستو) أو (سيابند) أو الآخرين من شخصيات الرواية ، أو أن يقارن أو يطابق بين أحداث الرواية وما يعرفه هو من أحداث الواقع ، ومع ذلك قد تكون ملامح محمود متوزعة على وجوه الكثيرين ، وبعض ملامح مستو في وجوه القليلين جداً. أمّا المقارنة والمطابقة فلن تؤدي إلا إلى سوء الفهم ؛ لأنه " إن كان ثمة حقيقة في العمل الفني ؛ فإنها لا توجد عادة في تطابقها مع الواقع الفعلي أو محاكاتها له " حسب (الواقعية/ ديمين كرانن/ ترجمة: د. عبدالواحد لؤلؤة/ ص ٢٨) ثم ان " العلاقة الداخلية بين الواقع والخيال تشكل أساس شخصية الأدب " كما يقول والاس ستيفنز (ص ٣٠ المصدر نفسه)

عن المترجم

- * جلال حسين محمد زنگبادي - لُرستاني (١/١٢/١٩٥١ كردستان العراق)
- * شاعر، مترجم وباحث عراقي باللغتين العربية والكردية، ويترجم اليهما عن: الفارسية، الإنكليزية، الإسبانية والأذرية... ينشر باسميه (ج ورده) و(ج زنگبادي) وأكثر من عشرة أسماء مستعارة.
- * عصاميّ النشأة فبعد اغتيال والده في أواخر ١٩٦٠ لنشاطه الوطني استرجل مبكراً وانخرط في شتى الأعمال والحرف: صانع تنابير، عمالاً، عاملاً في مكافحة البعوض وعامل بناء... ثم باع كتب على الأرصفة في السنوات (١٩٨٧-١٩٩٧) وقد تعرض للترحيل والتبديد وفقد دارين له حجراً ونسفاً في العهد العلفي البائد.
- * تثقيف ذاتي موسوعي. ابتدأ القراءة الجادة منذ (١٩٦١) و الكتابة منذ (١٩٦٣) ثم النشر في الجرائد والمجلات منذ (١٩٦٧) لكنه لم ينشر حتى الآن إلا عشرة من كتبه المؤلفة والمترجمة وبضعة كتب بالإشتراك مع آخرين
- * تخرّج في دار المعلمين الابتدائية بكركوك سنة ١٩٦٩ وعمل معلماً في التعليم الابتدائي (١٩٧١-١٩٩١) ثم في الجرائد والمجلات محرراً، مشرفاً ثقافياً ولغوياً، في الأقسام والملفات الأدبية والفنية والثقافية، وسكرتيراً ومديراً ورئيساً للتحرير لبضع مجلات في إقليم كردستان العراق.
- * راجع ونقح الكثير من النصوص الأدبية والبحثية والكتب المؤلفة والمترجمة لأبناء وباحثين كرد وعراقيين ومنهم أساتذة جامعيون.
- * ساهم في الهيئات التأسيسية لـ (جمعية مترجمي كردستان ١٩٩٢) و (الحركة الشعبية الكردستانية ١٩٩٦)، (المركز الثقافي والإجتماعي لكركوك ١٩٩٨) و (مجلة نه وشه فه ق ٢٠٠٣ بكركوك)
- * شارك بدور شاهد رئيس في الفيلم التسجيلي (الأراضي الضائعة) وهو عن تدمير البيئتين الطبيعية والبشرية في كردستان العراق/ في ٢٠٠٠
- * له مساهمات متواترة على صفحات بضعة مواقع إنترنتية منذ ١٩٩٩
- * صدرت له:
- ١- أوتار التنافي... / فرهاد شاكلي/ ترجمة عن الكردية/ ٢٠٠٤ دار الحصاد- دمشق/ سوريا
 - ٢- ظلّ الصنوت وقصص أخرى/ حمه كريم عارف/ ترجمة وتقديم عن الكردية/ ٢٠٠٥ كركوك / كردستان العراق.
 - ٣- قصائد تآبي أي عنوان و..... / جلال زنگبادي / مؤسسة الرعد - كركوك/ كردستان العراق
 - ٤- ها هي معجزتي (قصائد حب)/ جلال زنگبادي ٢٠٠٩ دار الجمل- بيروت/ بغداد
 - ٥- سنة في الجحيم/ مذكرات: مهلبا قرداغي/ ترجمة عن الكردية/ ٢٠١٠ وزارة الثقافة والشباب/ إقليم كردستان العراق- أربيل
 - ٦- ديوان عمر الخيام/ دراسة وترجمة منثومة عن الفارسية ٢٠١٠ منشورات الجمل - بيروت/ بغداد

٧- الثقافة الكردية، مشكلات ، معضلات وأهالي.../٢٠١٠ منشورات مؤسسة سرمد للطباعة والنشر
- (السليمانية

٨- الخلاصة (رواية) كلاويج / (ترجمة) - مؤسسة المدى ٢٠١٢

٩- أسطورة كلي ناوگردان (رواية للفتيان) كلاويج / (ترجمة) - مؤسسة المدى ٢٠١٢

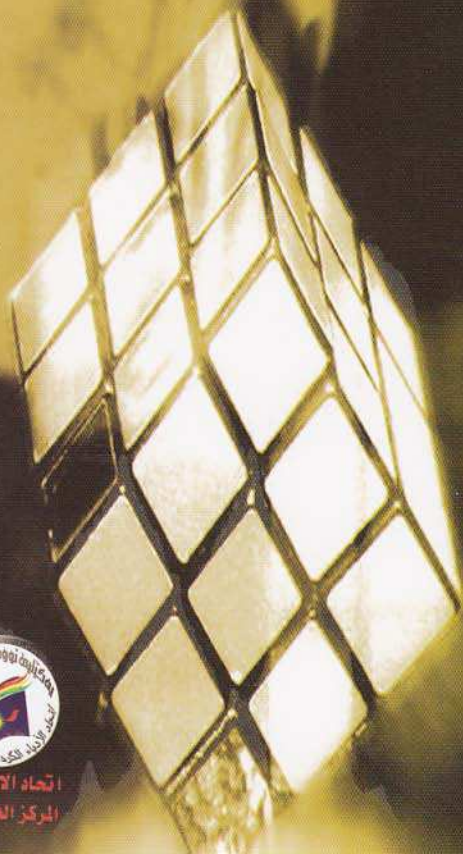
١٠- ثلاث قصص للفتيان / كلاويج / (ترجمة) - مؤسسة المدى ٢٠١٢

* نشر أيضاً أكثر من عشرة كتب مؤلفة ومترجمة على صفحات المجلات بمثابة (كتاب العدد)
وعلى صفحات المواقع النّتية.

* له قيد النشر أكثر من (١٥ كتاباً) منها : موسوعة الخيام / خورخيه ماتريكي ، مرثية لأبيه،
ترجمة عن الإسبانية ودراسة/ عبر شبك تاج محل لمحمود كيتوش ، عن الفارسية / هكذا شطح
الكافن مستقنلذ ، ملحمة مضادة / ٨١ قصيدة مختارة لسركون بولص، ترجمة إلى الكردية /
لنعرف الخيام جيداً/ و ديوان الخيام ... باللغة الكردية...

الفهرست

الإهداء.....	٤
(الرحيل الدامي) رواية كردية رائدة/ جلال زنگابادي.....	٥
الرحيل الدامي.....	٢١
إشكالية الثورة والواقع في (الرحيل الدامي)/ أبو شهاب.....	٨٥
عن المترجم.....	٩٣



اتحاد الادباء الكرد
المركز العام 20